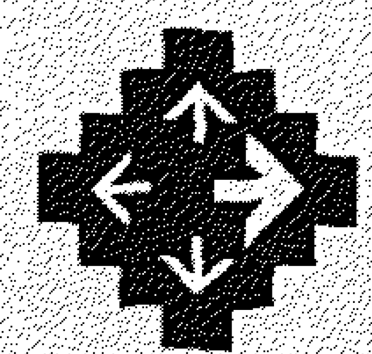
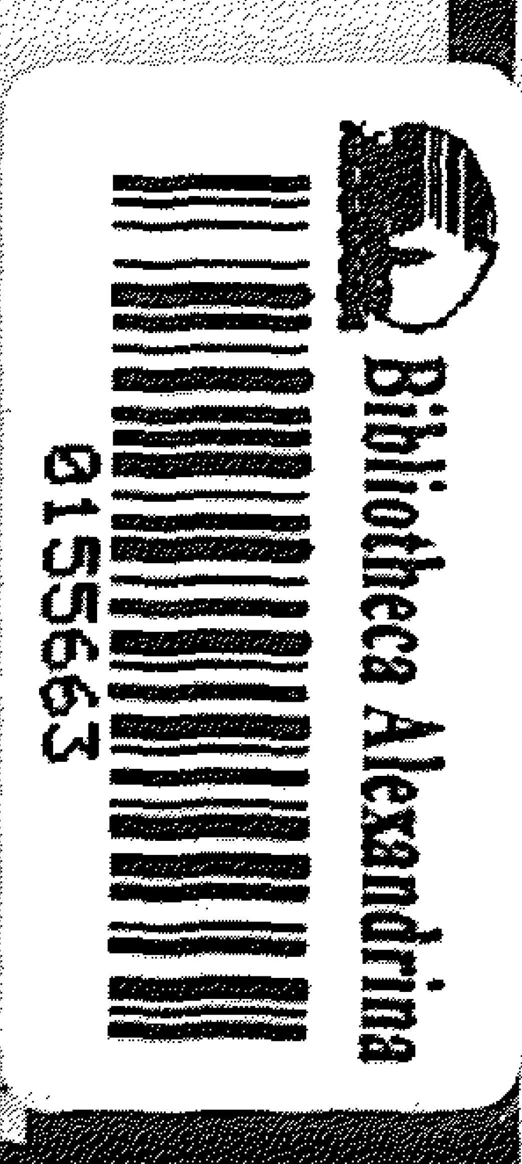
فريدة النقاش

يوميات الحب والغضب



دار شرقيات



يوميّات الحبّ والغضب

يوميات الحب والغضب

فريدة النقاش

الطبعة الأولى، ١٩٩٤

غلاف وإخراج: ذات حسين أبو زيد

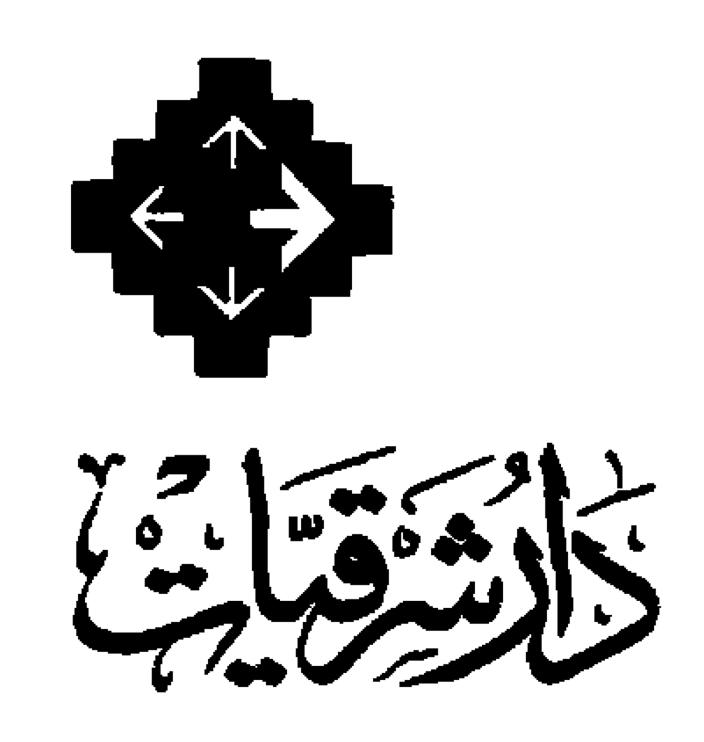
٥ شارع محمد صدقي، هدى شعراوي،

باب اللوق، القاهرة.

سجل تجاري: ٢٦٩١٩٨ ت: ٣٩٣٠٣٣٥

يوميات الحبّ والغضب

فريدة النقاش



هذا الكتاب

هذا الكتاب

حين قال الرئيس الراحل أنور السادات عن حرب أكتوبر إنها آخر الحروب كان يتصور أن التنازل أمام القوة الإمبريالية المدججة بأحدث الأسلحة والمساندة لإسرائيل يمكن أن يوفر لمصر مساحة للتنفس ولتنمية قدراتها والعيش بسلام بعيداً عن مشكلات المنطقة التي تصور أن بوسعه أن ينفض يد مصر منها.

وجاءت الأيام والأحداث بما لا تشتهي السفن، وأفصح السلام غير العادل الذي تم بحراسة أمريكية أن له مضموناً حربياً، ومنذ ذلك التاريخ جرت مياه كثيرة في النهر، ونشبت حربان كبيرتان في المنطقة إضافة للحروب الصغيرة: الأولى هي العدوان الإسرائيلي على لبنان الذي أدى لاحتلال جنوبه، والثانية هي الحرب الإمبريالية ضد العراق والتي دارت بوحشية لم يسبق لها مثيل بعد غزو العراق للكويت وبعد سلسلة من المناوشات مع العراق سبقت عملية الغزو بسنوات.

والآن ماذا يعنى نشر مثل هذا الكتاب الذي تتحدث مادته بفخر عن حركة التحرر العربي والعالمي، لعله ذلك الفخر المشبع بميل رومانسي يكاد أن يضفي طابعاً ذاتياً على الكتابة وكأن ما جرى إنجازه - ويجري الآن التراجع عنه - هو مسألة شخصية مفرحة لدى الانتصار وموجعة فيي الهزيمة.

نعم إن لهذه اللمسة الشخصية معنىً أعمق - في وجهة نظري - من أن يكون مجرد اختيار أسلوب للكتاب يسعى للاقتراب من القارئ حتى لا تكون السياسة كما هو شائع شغل السياسيين. يتمثل هذا المعنى الأعمق في حقيقة أنني تشكلت وجدانياً وثقافياً في قلب هذه الأحداث التي أحكي عنها: حرب التحرير الجزائرية، زمن النهوض الناصري، وصولاً لدورة المجلس الوطني الفلسطيني التي توحدت فيها فصائل منظمة التحرير في الجزائر، كذلك رأيت وجهاً لوجه بعض سائقي القطارات المصريين وأطفالهم وتحادثت مع عدد من شباب الجماعات الدينية وعقدت صداقات حميمة مع العمال

النقابيين وشاركت في مسيرة تضامن مع عمال مصريين في باريس وقرأت كثيراً عن إضراب عمال مناجم الفحم الذي استمر عاماً كاملاً في انجلترا.

كانت التفاصيل تستهويني في كل هذه التجارب الحية، وطالما وجدت نفسي منشغلة بربطها ببعض واستخلاص معنى عام منها، وكثيراً ما استقام هذا المعنى الذى أستطيع أن ألخصه بالقول إن الهزائم التي لحقت حركة التحرير الوطني العربية والعالمية سوف تكون مؤقتة؛ بل إنني في قلب هذا الظلام الحالك والضربات الموجعة التي تتلقاها الاشتراكية أكاد أرى بصيص ضوء، ولو صغيراً، يشير إلى طبيعة النهوض القادم، أكاد أرى النهوض القومي التحرري يسلك طرقاً أكثر جذرية وديمقراطية مادامت الشعوب تتعلم الدروس في خاتمة المطاف حين تلسعها النيران، حين تتألم. هكذا وجدت أن بعض الآلام والأفراح التي تنطوي عليها خبرة هذه اليوميات يمكن أن تساعد في التطلع إلى الأمام.

أذكر أن صديقاً مغربياً سألني بعد أن قرأ «غيوم على المغرب»: متى تظنين أنها سوف تمطر؟

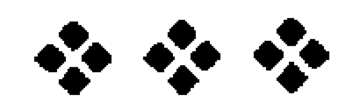
حينها لم أصل لإجابة ترضيني، وبعدها بشهور اندلعت انتفاضة الشعب الفلسطيني، وكنت أود أن أقول إنها الرد الذي أبدعه شعب خذله أشقاؤه، وامتدت الانتفاضة لخمسة أعوام دون حل للقضية العادلة للشعب الفلسطيني. وها هي حرب الخليج تندلع لترد بالنفي على وعد السادات الذي بناه على سلام زائف بأن حرب أكتوبر هي آخر الحروب، وتقول لنا أن مثل هذا السلام وهم اذا لم تتخلص المنطقة من التبعية بكل صورها، وإذا لم تصبح السياسة شغلاً انسانياً يومياً للجميع، أي وعياً قومياً تحررياً شاملاً. وهذا ما أظن أن هذا الكتاب يطمح للإسهام في صنعه.

ومع ذلك فإنني لا أستطيع حتى الآن أن أرد على صديقي المغربي: متى ستمطر مطراً حقيقياً.. لأن السماء تمطر الآن رصاصاً وقنابل على شعب شقيق، ووقفها اختبار لوعينا وقدرتنا على الفعل لنواصل مسيرتنا من أجل سلام عادل ودائم حقاً.

أرجو أيها القارئ العزيز أن تجد لهذا الكتاب فائدة في هذا السياق.

فريدة النقاش

يناير/ فبراير ١٩٩١



هل قتل السوفييت
عبد الناصر ؟

هل قتل السوفييت عبد الناصر؟

قال محمود مرسي، أو محمود الجندي لا أذكر بالضبط في مسلسل «المحروسة ٨٥» لسعد وهبة من إخراج محمد فاضل «إن الدول الكبرى تتفق ضدنا، أي نحن الدول الصغرى، وإننا يمكن أن نضيع في الرجلين».

تذكرت على التو وجه ذلك الدليل الشيخ الذي صحبنا منذ سنوات بعيدة في مسجد «أحمد بن طولون» ليشرح لصديقتي الفرنسية طريقة البناء بالحجر وملامح العصر ولما انهمكت هي في قراءة الخطوط - وكانت تتعلم العربية - أخذ العجوز يحدثني عن نفسه وأسرته في الصعيد، وأبنائه الذين يتعلمون في المدارس «مدارس عبد الناصر» كما قال. داخلني شعور عميق أنه وحيد سئم العمل الرتيب والكلمات المعادة التي يقولها كل يوم ثم يبيت آخر النهار في المسجد دون أنيس، أخذت انصت له باهتمام، ولكن ما أن قررت صديقتي أن تصعد وحدها إلي المئذنة العالية، حتي كان زميل لها يلحق بها ومعه وفد سياحي كبير. بدت ملامح الناس غير مألوفة لي ولا أدري لماذا سألته:

- هل هم إسرائيليون؟
- قال: كلاً بل روس. ثم أضاف: قتلوا عبد الناصر.
- من الذي قتله؟
- الروس!
- كيف ولماذا؟
- وضعوا له السم لأنه كان يوحد البلاد الصغيرة ضدهم.
- ضدهم أم ضد أمريكا وإسرائيل؟
- ضدهم جميعاً، ولهذا اتفقوا جميعاً علي قتله.

- من قال لك ذلك؟

- في المحاضرة

- أي محاضرة؟ عجزت عن استخلاص جواب لأنه سرعان ما انخرط في حديث مع دليل الفوج وغاب في الزحام.

قبل أعوام قليلة من هذه الواقعة كنت قد سمعت حدوتة مشابهة تماماً من ملحق صحفي مصري في شمال افريقيا عرفت عنه عداءه الأصيل للاجراءات الاجتماعية الجذرية لعبد الناصر. كان في جلساته الحميمة يسخر من الإصلاح الزراعي والتأميم، وبصفة خاصة من الصداقة الوثيقة مع الاتحاد السوفيتي، ومن دور مصر العربي.

كانت حدوتة الملحق الصحفي مصحوبة بتحليل سياسي كامل مؤداه أن السوفييت قد انزعجوا من النفوذ الكبير لبلدان عدم الانحياز، ومن زعامة جمال عبد الناصر وأنديرا غاندي بعد موت أبيها، لأن هذه البلدان بزعاماتها التي تحظى بشعبية كاسحة تشكل كتلة دولية كبرى تهدد نفوذ السوفييت في العالم وطموحهم للسيطرة علي البلاد الصغيرة.

وفي خريف عام ١٩٧٤- وكانت الملامح الأولى للتقارب مع إسرائيل قد أخذت تتضح بعد انتهاء حرب اكتوبر ومباحثات الكيلو ١٠١ واعلان سياسة الانفتاح الاقتصادي وصدور القانون رقم ٤٣ لسنة ٧٤ وتصريح ممدوح سالم أننا نريد اقتصاداً حراً بلا ضوابط- كنت احضر مهرجان افينيون المسرحي في فرنسا، وقدمت فرقة هواة صغيرة في إحدى الليالي عرضاً تسجيلياً عن المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألماني النازي الذي كان بمثابة تدريب أولي لعرض كبير تعد له الفرقة في مناسبة مرور ثلاثين عاماً علي سقوط الفاشية التي جرى الاحتفال بها على نطاق واسع في العالم التالي ١٩٧٥....

كان العرض مفعماً بالشجن، يؤجج المشاعر ويثير العطف على الشهداء والضحايا، وقد استخدم المخرج شريطاً سينمائياً في الخلفية يصور أفران الغاز التي أحرق النازيون فيها المقاومين من شيوعيين واشتراكيين وقُسُساً من كافة الجنسيات بينهم اليهود.

اعترض طريق خروجي من العرض ناقد انجليزي وزوجته وكانت عيناي مليئتين بالدموع، فقال أقدم لك صديقي العازف الذي وضع موسيقى العرض، وكانت الموسيقى ملفتة للنظر بسبب الشجن الصافي الذي عبرت عنه باتقان ومرارة.

تحدثنا علي الطريق طويلاً، حديثاً حميماً للغاية. وعلى باب الفندق قال لي العازف هل بوسعنا أن نكون أصدقاءكم، اتمنى أن أرى الأهرامات.

قلت له أهلا بك في مصر.

قال: لكنني حتى الآن لم أستطع الدخول. إنهم يضحكون علينا. يضللوننا.

- من هم؟

- الأمريكيون يضحكون علينا ويضللوننا نحن الإسرائيليين. والروس يضحكون عليكم ويضللونكم أنتم المصريون. وعلينا ان نجد طريقاً مشتركاً.. فيما بيننا بعيداً عن القوتين العظميين.

كان الناقد الانجليزي يعرف جيداً أن العرب يرفضون رفضاً قاطعاً التعامل مع الإسرائيليين على أي نحو.. فلم يحدد لي جنسية العازف. وكان اليهود الاوروبيون يبذلون جهوداً مضنية ليكونوا وسطاء بين الطرفين، وعرفت فيما بعد، أن وساطة من هذا النوع في مستويات عالية جداً كانت قائمة على قدم وساق تمهيداً لزيارة السادات للقدس.

ورغم أنني رفضت استمرار المناقشة وبينت اسبابي، فانني لم أنس ابداً هذا القول الذي علق بذهني تماماً كما هزت الموسيقى مشاعري: القوى العظمى تضللنا كلينا من أجل مصالحها.. القوى العظمى لا تختلف عن بعضها البعض.

هذه هي المرة الأولى التي أصطدم فيها وجها لوجه بأحد الأسس الثابتة للدعاية الاستعمارية في العالم الثالث ومنه بلادنا في ظل الانفتاح.

فيما بعد قرأت مقالات كثيرة لكتاب مصريين، وأساتذة جامعات دأبوا علي الكتابة المنظمة للصحف الحكومية وبعض الصحف الحزبية، وكانوا ومازالوا ينطلقون أساساً من هذه الفكرة: إن القوى العظمى تتشابه وليس هناك فارق بينها. وبعد أن يؤكدوا أسسها في وعي المواطن العادي يطرحون أكثر الأفكار تطرفاً وتشدداً. وأذكر أن أحدهم كتب مقالاً بهذا المعنى دعا فيه ياسر عرفات أثناء حصار بيروت إلى البقاء والموت فيها هو وكل رجاله وكان قد بنى مطالبته هذه على الفكرة السابقة: إنك بلا أصدقاء فقد اتفقت القوى العظمى ضدك.

توقفت كثيراً أمام هذه المقالات، وكنت أقول لنفسي إنها جزء لا يتجزأ من عملية إعادة النظر الشاملة في كل الأشياء البديهية العادية أو البسيطة كشعاع الشمس، وفكرت أكثر من مرة أن أرد وأذكر الناس بالمواقف التي لا تنسى للعالم الاشتراكي في مساندة قضايانا.. وأقول لهم إنه بينما أقامت حكومة مصر علاقات دبلوماسية مع العدو الصهيوني الذي رفع علمه اخيراً علي النيل فمازالت العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومعظم البلدان الاشتراكية من جهة وإسرائيل من جهة أخري مقطوعة حتى الآن منذ عدوان ١٩٦٧. كنت أقول لنفسي أخيراً إن قراء الصحف قلة على أي حال. لكن هذه النغمة الثابتة والزائفة في الدعاية وصلت بقوة إلى أجهزة الاعلام الأكثر انتشاراً.. إلى التليفزيون.

التليفزيون يدخل الحلبة

قبل أسابيع قليلة كان الكاتب المسرحي الصديق «يسري الجندي» يقول الشيء نفسه في مسلسل «نهاية العالم ليست غداً» الذي أخرجته الفنانة علوية زكي، وكانت هذه هي المرة الأولي في حدود علمي التي يتعرض فيها مسلسل تليفزيوني لمثل هذه القضية إذ يناقش العلاقات الدولية وموقع بلدان العالم الثالث منها، ويتحدث عن الكارثة النووية المقبلة وهو يلقي بتبعتها على القوى العظمى كلها أي الرأسمالية والاشتراكية - أمريكا والاتحاد السوفيتي باعتبارهما شريكين مسئولين على قدم المساواة عن الخراب الشامل الذي يدق أبواب العالم- دون أن يذكر طبعاً أن أول من صنع القنبلة الذرية وألقاها على هيروشيما ونجازاكي في اليابان من قبل التجربة وبعد انتهاء الحرب هي الولايات المتحدة الأمريكية وأنها هي التي بدأت سباق التسلح النووي وترفض أن تنهيه وليس الاتحاد السوفيتي.

ذلك أن هذه الحقيقة تفسد السياق العام للحدوتة الجديدة التي تقول لنا إن القوتين متشابهتان، بل متطابقتان. وتقول لنا ايضاً إننا وجدنا في هذا العالم بلا عون ولا سند، وإن السياسات التي اختارتها الرأسمالية المصرية وأدت إلى ما نحن فيه - كانت بذلك ضرورية بل وحتمية، فما دام اختيار الحليف العالمي لا يعني شيئاً فلماذا لا نكون عمليين ونختار الأجمل والأرقي!!

أليست البضائع الأمريكية أجمل بصرف النظر عما إذا كانت هذه البضائع معدات لبناء السد العالي، أو عطوراً فاخرة ومعلبات لأكل الكلاب المدللة، وبصرف النظر أيضاً عن أن الأمريكيين قد رفضوا فيما مضى تمويل بناء السد العالي أو تصنيع مصر وتسليحها، وأن السوفييت هم الذين مولوا السد العالي وصنعوا مصر وسلحوها قبل أن يتحدث عبد الناصر عن الاشتراكية بزمن طويل، فلا أحد يجب أن يستدعى ذكريات التاريخ القريب.

صناعة الدعاية

وتعرف أجهزة الدعاية الرأسمالية التي تصدر مادتها للعالم الثالث كيف ولدت شعبية عبد الناصر، التي عجزوا عن اقتلاعها من قلوب الناس وخيالهم، مع تصديه المجيد للدفاع عن حق مصر في ثروتها وتأميم قناة السويس لكي يمول من دخلها بناء السد العالي. فليكن حلفاؤه هم قتلته الذين يدسون له خوفاً من نفوذه!!

كذلك يتناسى مؤرخو الحقبة الساداتية والباحثون في المراكز الأجنبية وكتاب المسلسلات أن الإنذار السوفييتي لدول العدوان الثلاثي قد لعب دوراً رئيسياً في وقف

هذا العدوان وجاء في نفس الإنذار الذي وجهه بولجانين رئيس الوزراء إلى انجلترا وفرنسا ما يلي:

«لم يكن تأميم قناة السويس إلا ذريعة للعدوان الأنجلو - فرنسي الذي ينطوي على أغراض حربية أخرى، والحقيقة التي لا يمكن إخفاؤها هي أن حرباً عدوانية تشن ضد الدول العربية بهدف القضاء على الاستقلال الوطني لدول الشرقين الأدنى والأوسط، وبهدف إعادة نظام العبودية الاستعمارية الذي لفظته الشعوب العربية. وماذا يكون موقف انجلترا إذا هاجمتها دول أخرى أقوى، لديها كافة أنواع الأسلحة الحديثة والمدمرة؟ ودول كهذه تستطيع في الوقت الحاضر أن ترسل قوات بحرية أو جوية إلى شواطئ بريطانيا، وأن تستخدم وسائل أخرى كالأسلحة الصاروخية، وإذا حدث هذا واستعملت الأسلحة الصاروخية ضد المملكة المتحدة أو فرنسا فإنكم بلا شك ستصفون هذا بأنه أعمال وحشية ولكن فيم يختلف هذا عن الهجوم الوحشي الذي تشنه القوات المسلحة للمملكة المتحدة وفرنسا على مصر التي تكاد تكون بلا دفاع؟ نعتقد أن حكومة المملكة المتحدة يجب أن تصغي لصوت العقل وتوقف الحرب علي مصر، ونحن مصممون تصميماً أكيداً على سحق المعتدين واقرار السلام في الشرق الأوسط باستخدام القوة، ونحن نأمل في هذه اللحظة الحرجة أن تستعملوا العقل وتستخلصوا النتائج المترتبة على ذلك».

وجاء في نفس الإنذار السوفيتي لإسرائيل ما يلي: «إن الحكومة الإسرائيلية بتنفيذها لإرادة غيرها تلعب بإجرام وبغير شعور بالمسئولية بمصير السلام ومصير شعبها. إنها تبذر بين شعوب الشرق من الحقد لدولة إسرائيل، ما سيكون له بشكل أكيد أثره على مستقبل إسرائيل وما يعرض للانتهاء وجود إسرائيل نفسها كدولة. ونحن نأمل أن تفهم حكومة إسرائيل هذا الانذار فهماً وأن تعيه».

كان ذلك قبل أن يتحدث عبد الناصر عن الطريق العربي للاشتراكية بزمن طويل. وبعد هذا التاريخ بما يزيد قليلاً على عشر سنوات عوض الاتحاد السوفيتي مصر عن الهزيمة التي لحقت بها في حرب ١٩٦٧ وتنازل عن أقساط السلاح الضائع في سيناء وبذل العون النزيه على كل المستويات لكي تخرج الدول العربية من حالة الهزيمة ولتبدأ مصر حرب الاستنزاف بعد شهور وهي تواصل تجديد صناعتها وتطوير نفسها. تلك أشياء لا يحب كتاب المقالات - أو المسلسلات والفوازير أيضاً- ذكرها، لأنها تفسد الحبكة، ولأنها تؤلب مواجع القوى الرجعية التي تريد أن تلتحق بخدمة أمريكا دون أن يؤنبها أحد أو يذكرها بعبد الناصر. والأفضل لها أن تقول: قتله السوفييت رحمه الله.

لم يكن غريباً أن يشتد سعار الرجعية المحلية والعربية والعالمية ضد عبد الناصر حين وصلت به خبرة السنين وتجربة التنمية الشاملة والاقتصاد المستقل إلى هذه الحقيقة التي أخذ يعلنها في كل مناسبة وباتت اختياراً أملته الظروف: «إن صداقتنا مع الاتحاد

السوفيتي هي صداقة استراتيجية».

ولم يجد عبد الناصر نفسه مضطراً لتوقيع معاهدة مع السوفيت، ولم يسع- مثلما فعل السادات بعد ذلك- لمثل هذه المعاهدة التي وقعها السادات لكي يلغيها في مشهد استعراضي أراد به أن يبدو كزعيم وطني يخلص بلاده من المعاهدات المجحفة. وهو المشهد الذي تلقفه كتبة التاريخ فيما بعد ليقارنوا بينه وبين قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس، ويسوقوه ببراعة زائفة كخطوة مقدامة تخلصت بها مصر السادات من نفوذ أجنبي آخر، تماماً مثلما تخلصت مصر عبد الناصر من نفوذ الفرنسيين والانجليز بتأميم قناة السويس، ليصبح أي شيء مثل أي شيء اتساقاً مع المقولة الأساسية في الدعاية: الرأسمالية مثل الاشتراكية فما هو الفارق؟

أقول: لم يجد عبد الناصر نفسه مضطراً أمام هذه الصداقة الاستراتيجية مع الاتحاد السوفيتي إلى توقيع معاهدة.. لأنه كان يعرف تماماً كما عرف القادة السوفيت أن هذه الصداقة تخدم المصالح المشتركة للبلدين.. التي تتمثل في تصفية الاستعمار والعنصرية، وفي القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم - وهو أحد شعارات ثورة يوليو الستة - وفي فتح الطريق وتعبيده أمام الجماهير الكادحة في كل مكان من العالم لكي تمتلك ثروة بلادها وتتصدر السلطة فيها وتسقط سلطة رأس المال لأنها حينئذ سوف تكون سنداً لدولة العمال والفلاحين الاشتراكية في بلاد السوفييت، تمنع التآمر عليها، وترفض أن تكون بلادها نقطة وثوب عسكرية ضدها سواء في شكل قواعد أو قوات انتشار سريع أو قوات متعددة الجنسية.. كما هو الحال في مصر الآن حيث تتجه الأنظار والتجهيزات كلها إلى عدو آخر غير العدو القومي الذي يهدد حدودنا وهو إسرائيل ليقرر الأمريكيون علينا عدواً جديداً هو الشيوعية الدولية والاتحاد السوفيتي علي رأسها بينما لا يستفيد الاتحاد السوفيتي أو الشيوعية الدولية شيئا من الهزيمة التي لحقت بحركة التحرير العربي وبعثرت المنطقة وأخرجت مصر من قيادة الحلف المعادي للاستعمار والصهيونية فيها. طالما وقفت سلطة العمال والفلاحين في الاتحاد السوفيتي مع مصالح العمال والفلاحين على امتداد المعمورة دون تردد.

فور انتصار الثورة الاشتراكية الأولى رفضت دولة العمال والفلاحين الناشئة التي أنهكتها الحرب الأهلية أن تدخل في تحالفات ضد شعوب الشرق والمستعمرات بل إنها فضحت لهذه الشعوب الناهضة كل المعاهدات السرية التي كان قياصرة روسيا قد أبرموها مع البلدان الاستعمارية الأخرى ليقتسموا بمقتضاها مناطق النفوذ في العالم، ذلك أن روسيا الثورية كانت لها مصلحة أكيدة في تحرير شعوب الشرق واستقلالها وتقدمها.

وكيف تتحدد المصالح الآن يا ترى بعد أن أصبحت للاشتراكية دولة عظمى؟

تقول الدعاية الرأسمالية.. كما تقول المسلسلات والمقالات إنهم يبحثون عن مصالحهم: الاشتراكيون لهم مصالح والرأسماليون لهم مصالح، هل يدافع السوفييت عن مصالحهم؟

وهل كانوا يدافعون عن مصالحهم حين ساندوا عبد الناصر بلا حدود وحين ساندوا كاسترو وأنديرا غاندي ويساندون الآن أورتيجا في نيكاراجوا ... و ... . طبعاً إنهم يدافعون عن مصالحهم فمن السذاجة بل والبلاهة أن تقف دولة كبرى أو صغرى ضد مصالحها.

ولكن كيف تتحدد المصالح؟؟ بلعبة حظ أو اختيار عشوائي تلجأ اليه من بين بدائل كثيرة كما تقول المسلسلات؟ أم أنها نتاج للسلطة التي تحكم فإن كانت سلطة أصحاب رأس المال كانت المصالح لهم، وإن كانت سلطة العمال والفلاحين كانت المصالح لهم.

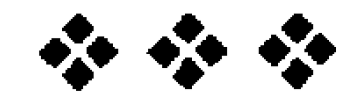
وفي ظل عبد الناصر كانت السلطة في مصر رغم كل شيء تدافع عن المصالح الأساسية للشعب بمجمل طبقاته الوطنية فالتقت المصالح مع المبادىء وكانت الصداقة، التي يتوقف علي استعادتها في ظروف الهوان القومي، ويتعين علي كل الوطنيين والشرفاء أن يسعوا إليها - لا أن يلطخوا صفحاتها المجيدة بالسواد- سواء في المقالات أو المسلسلات أو الأفعال.

أقول «ليسري الجندي» إنك اخترت بالضبط الخط الأساسي في الدعاية المعادية لحركة التحرير في العالم الثالث ونسجت عليه ما تسميه خلاصاً وساهمت دون أن تدري أيضاً في تزييف وعي البسطاء وفي دفعهم دفعاً إلي يأس كامل يتحقق من الوحدة المطلقة للإنسان في هذا الكون، إنسان العالم الثالث وحارة المناديلي «ومصر»، لأنه لو كان الأمر كذلك، أي لو كانت قوة الاشتراكية العظمي بثرواتها وخبراتها وأسلحتها ونفوذها المعنوي الجبار سنداً لبربرية الاحتكارات والشركات العملاقة بل شريكاً لها علي حد قولك أي لو كانت ترسل خبراءها لصناعة العطور من الملوخية لكان علينا أن نقبل بالتبعية والاستسلام والخضوع الذليل كقدر لا فكاك منه ولا بديل عنه إلا الانتحار، ذلك أن أعداءنا يتكاثرون جداً ومصادر تسليحنا تشح بل يغلقها تحالف القوتين العُظميين ضدنا، فما بالنا لو كانت قوة منهما - أي قوة الرأسمالية الأمريكية - تقف بلا شروط ولا حدود مع إسرائيل ومطامعها بل إنها تشركها في برنامج التسليح النووي المتقدم، الذي يهدد العالم بالكارثة. فلماذا تتهم بطلك المثالي المخلص بالجنون إذا ما انتظر الخلاص من كائنات خرافية تأتيه من العالم الآخر، ولماذا نصدق الخطبة التي يلقيها علينا في النهاية قائلاً إن مفتاح خلاصنا في يدنا نحن وقد كبرت المصيبة فأصبحت مأساة باتفاق الكبار ضدنا نحن الصغار وقد بقينا وحدنا، وحدنا في هذا العالم نتحمل عبء الكارثة المقبلة وعلينا وحدنا أيضاً.. ان نزيحها عنا. وهو يقول أيضاً ان القوتين العُظميين قد تحالفتا معاً ضد عبد الناصر فمات بدوره «مقتولاً» وحيداً دون نصر.. ويقي أن تقول لقد انتصر السادات لأنه تحالف مع أمريكا «وتحرر» من

السوفييت.

وأجدني أتذكر كل الوجوه والملامح مع هذا البيت من الشعر الذي صاغه الشاعر سيد حجاب:

يا خوفي يوم النصر ترجع سينا ونخسر مصر.



البابا ولاهوت التحرير

البابا ولاهوت التحرير

يتقدم البابا علي منصة لعرض الأزياء عارضاً ملابس الرهبان وسط طابور طويل من الرجال والنساء في فيلم للمخرج الإيطالي «فيليني»، وحين قدم «فيليني» فيلمه هذا لم يكن البابا يوحنا بولس الثاني قد انتقل بعد من مقره في رئاسة الكنيسة الكاثوليكية في بولندا ليتولى العرش البابوي في الفاتيكان قبل شهور من اندلاع الأزمة الاقتصادية الاجتماعية الشاملة في بولندا.

ولم يكن «فيليني» - الذي ناصر بسخريته القاسية مطالب النساء في إباحة الطلاق وتقنين الإجهاض- حيث وقفت الكنيسة الكاثوليكية ضدها لسنوات طويلة- يعرف أن البابا الجديد سوف يشارك بعد عدة سنوات قليلة في عرض حي من نوع جديد ضد التقدم والاشتراكية، ضد ثورة المظلومين في أمريكا اللاتينية وضد المقاومة اللبنانية في الجنوب، وضد القساوسة التقدميين الذين اشتركوا كوزراء في الحكومة الثورية في نيكاراجوا.

وفي جولاته المتعددة - التي وصلت إلى ست في فترة وجيزة في أمريكا اللاتينية وحدها ناهيك عن بلدان أوروبا وبولندا خاصة- لم تكن سخرية «فيليني» من أي بابا شيئاً مدهشاً.. إذ منع عنه البوليس في بعض الأحيان قذائف الطماطم والبيض التي ألقيت في وجهه بسبب اختياره الإمبريالي، ولكن الرداء البابوي لم ينج في كل الحالات من آثار القذائف في هولندا أو بيرو.. كما أن البوليس لم يستطع أن يسد أذني البابا حتي لا يستمع الي الشتائم. ولم يكن فيليني إذن مبالغاً جداً فقد لعب البابا دوراً بارزاً ضد بولندا وكذلك ضد اتباع «لاهوت التحرير» من المفكرين والمناضلين الذين وجدوا في الصراع الطبقي بأشكاله المختلفة القانون الرئيسي للتطور التاريخي.

وتحتج وثيقة «البابا يوحنا» على موقف «لاهوت التحرير» لأنه على حد قوله يشق صفوف الكنيسة الكاثوليكية، وهو ما حدث فعلاً، لأن الفاتيكان يرفض مقولة

«لاهوت التحرير» التي تدين التعاون مع السلطات التي تستغل الجماهير في أمريكا اللاتينية. ويدعي البابا أن «التسامح» مع هذه السلطات يمكن أن يؤدي إلي نتائج «إنسانية».

كذلك فإن رجال «لاهوت التحرير» يرتكبون بنظر الفاتيكان خطيئة لا تغتفر حيث يطرحون ضرورة المشاركة في الصراع الطبقي بوصفه جزءاً لا يتجزأ من الإحسان المسيحي واعتبار الغني ليس «موضوعاً للكراهية» فحسب، بل ومن الأساس عدواً طبقياً تتوجب محاربته. وتوصي وثيقة الإدانة التي أصدرها البابا بأنه «من الضروري في سبيل حب الجار استخدام طرق اللاعنف في الحوار والإقناع، حتي ولو كان هذا الجار استعمارياً ورأسمالياً يستعبد الناس.

وغني عن البيان أن أنظمة الحكم الدكتاتورية والملاك الكبار في أمريكا اللاتينية الذين اغرقوا البلاد في بحور الدم والشقاء لا يخافون ابداً من هذه الأساليب التي تعتمد «التسامح» و«المغفرة» و«الصبر» بشكل أخلاقي غامض كأدوات للمواجهة.

وتزداد لهجة الوثيقة عنفاً ويكشر البابا عن انياب ريجانية حين يقول: «إن رجال لاهوت التحرير يحاولون إقامة تحالف «هدام» بين الفقراء الذين يتحدث عنهم الكتاب المقدس وبروليتاريا ماركس. ثم تزداد لهجة الوثيقة حدة حين تصف: «انظمة الحكم الاستبدادية الملحدة التي استولت على السلطة بوسائل ثورية وعنيفة بحجة تحرير الشعب وأنها وصمة عار على جبين عصرنا». وتشير الوثيقة إلى نيكاراجوا دون أن تسميها حيث تلقى الفاتيكان ضربة عنيفة حين اشترك ثلاثة من القساوسة في الوزارة فسارع إلى استخدام سلاح الحرمان.

البابا.. وكابوتشي

حين وصل البابا إلى مطار «وارسو» في زيارة لبولندا بعد أن أفلتت من الفخاخ المنصوبة لها للسقوط في قبضة الرأسمالية العالمية(*)، انحني «يوحنا بولس الثاني» ليقبل أرض وطنه الأصلي وكاد أن يبكي.. ولعله تذكر في هذه اللحظة أن الاشتراكية لم تهزم رغم عنف الأزمة وعمق الجراح ومهارة الإدارة «الريجانية» التي اتخذت قرارا عصبياً بفرض المقاطعة الشاملة ضد بولندا بهدف تركيعها.

سلطت كاميرات التليفزيون عيونها الدقيقة على عيني البابا للحظة فكانتا بلا حياة، وعلى التو تذكرت مشهداً مشابهاً وقع علي أرض فلسطين قبل عشر سنوات، كان مشهداً للرحيل عن الوطن لا العودة له حين طردت السلطات الصهيونية الأب

(*) سقطت بولندا بعد ذلك وكان سقوطها إيذاناً بانفراط عقد المنظومة الاشتراكية وانهيار حلف وارسو

«هيلاريون كابوتشي» مطران القدس بعد أن أفرجت عنه استجابة للضغوط الدولية من كل لون، كنسية وسياسية، وكان يقضي مدة عقوبة اثنتي عشرة عاماً بعد أن حمل في ردائه الكنسي الجليل أسلحة للمقاتلين في الضفة الغربية لاستعادة أرضهم.. حين قبل كابوتشي أرض فلسطين أخذ يبكي لأنه وقد انخرط في النضال على الطرف الآخر النقيض للبابا يوحنا بولس الثاني كان يدرك أن معركة وطنه طويلة بطول عمر الاستعمار والصهيونية في عصرنا، وربما لن يكون بوسعه العودة إلى وطنه مرة أخرى وهو الشيخ الذي تجاوز الستين.. فبكى كثيراً.

المخابرات المركزية.. دائماً

ويوم الجمعة من كل اسبوع يتلقى المقر البابوي تقريراً سرياً من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وقد أصبح مرجعاً أساسياً له حول السياسة العالمية وطبقاً له تتقرر العلاقات الخارجية للفاتيكان كما يذكر مؤلفان انجليزيان في كتاب لهما، ويقول الكتاب إن العلاقة بين هاتين المؤسستين العالميتين للرجعية تعود إلى أربعين عاماً مضت، أما العلاقة بين «البابا يوحنا بولس الثاني» والمخابرات الأمريكية فقد بدأت بعد أقل من شهر من ترقيته من كاردينال بولندي إلى بابا الفاتيكان عام ١٩٧٨.

وتزود المخابرات المركزية البابا بمعلومات دقيقة عن انتشار «لاهوت التحرير» في أمريكا الجنوبية وتنقل له آخر تحركات رجال الدين اليساريين في نيكاراجوا والسلفادور والعديد من البؤر المضطربة التي تتطابق فيها مصالح العرش البابوي والولايات المتحدة الأمريكية.

حين أصدر الفاتيكان بياناً ينكر اتصاله بالمخابرات المركزية على هذا النحو نشر المؤلفان وثيقة تؤكد صحة معلوماتها الصادرة من أشخاص مقربين للبابا وذوي مناصب رفيعة للغاية، فلم يعلق الفاتيكان!!

وتحمل هذه الحكاية في طياتها دلالة عميقة على أن رياح التغيير قد وصلت إلى قلب المؤسسة نفسها، سواء كان الذين سلموا هذه المعلومات قد فعلوا ذلك مدفوعين بتعاطف ديني مع «لاهوت التحرير» حين وجدوا فيه تطابقاً مع الصورة التي يريدها الرب للإنسان على هذه الأرض، أو حتى بسبب الفساد الضارب في مكتب الفاتيكان نفسه. وقد شهد تاريخ الكنيسة الكاثوليكية على مدي القرون صراعات ضارية بلغت في أحيان كثيرة حد الاقتتال واندلاع الحروب الطويلة بين قوى الاصلاح والتغيير من جهة وقوى الجمود والرجعية من جهة أخرى. وما الصراع بين «لاهوت التحرير» والبابا يوحنا بولس الثاني إلا حلقة جديدة من هذه الحلقات.

فعلى أي أرض نشأ «لاهوت التحرير»؟

في أمريكا اللاتينية والوسطى يحصل ٤٪ من السكان على ٥٠٪ من الدخل بينما يشترك الـ ٩٦٪ الباقون في نصف الدخل الآخر. وقد استأثرت القلة بهذه الثروة وبالسلطة معها مستخدمة أبشع وسائل الإرهاب والقمع فخطفت المناضلين وعذبتهم وقتلتهم وجوعت الشعب الكادح بمساندة مباشرة من الشركات المتعددة الجنسية. وحيث وقفت الكنيسة الرسمية مع كبار الملاك والشركات وحصلت على نصيبها من دماء الشعب أخذ مسيحيون كاثوليك وبينهم رجال دين وقسس كبار يتساءلون: ما هي فائدة الايمان بالضبط في مثل هذا الوضع؟ ألسنا متواطئين مع الظلم حين تشيع روح الصبر على التعاسة بين هذه الجماهير الفقيرة على أمل أن تتحقق سعادتها في العالم الآخر؟

وكانت إجابة القسس هي اكتشاف الجوهر الثوري للدين وعماده إرادة الإنسان وقدراته التي تعززها مكانته الخاصة فوق كافة المخلوقات عند الرب، وهي مكانة لابد أن تنأى بهذا الإنسان عن التواكل والسلبية والصبر المريض على الحرمان والظلم.

إنه دين يقدم للفقراء «يسوع» كواحد منهم فقيراً مثلهم كما كان هو في حياته مثلما قصها الانجيل ولم يكن بعيدا عن ذاكرتهم ومخيلتهم. «يسوع» الذي صوره السود الامريكيون علي شاكلتهم أسود وهم يناضلون ضد تراث الاستعباد الطويل منذ جلبهم تجار الرقيق من بلادهم الأصلية في اعتى عملية قرصنة عرفها تاريخ البشرية ليستخرج الرجل الأبيض ثروات الأرض ويبني القارة الجديدة بدمائهم. وكان الصليب الذي وضع عليه يسوع الأسود يقطر دما.

ومنذ سنوات كان الشيوعيون العراقيون قد حولوا أهازيج عاشوراء وطقوسها إلى أهازيج وطقوس ثورية بدلاً من أن تنخرط الجماهير في جلد نفسها تكفيراً عن خطيئة لم يرتكبها الفقراء في حق الثائر الشهيد بل ارتكبها السادة المالكون المتوحشون. وأصبحت الأغنيات أناشيد لبطولة الحسن والحسين ودفاعهما المجيد عن المستضعفين في الأرض ونضالهما الطويل من أجلهم أي من أجل اقرار جوهر الدين - العدل. كانوا بذلك يعودون بالجماهير الفقيرة التعيسة إلى النبع الصافي لنشأة الأديان جميعاً، أي الاحتجاج على الشقاء فيكسبون الجماهير في ظل وعي جديد إلى صف نفسها حين تتحول طاقة التكفير عن ذنب أو خطيئة إلى قوة مادية منظمة للاحتجاج على ظلم قائم في الواقع.

كذلك حول دعاة «لاهوت التحرير» وقساوسته التراتيل الكنسية إلى أناشيد ضد الاستغلال، ضد السماسرة والتجار والمقاولين، ضد الجوع والخنوع، ضد الاستعمار

منشدين «للأب الذي في أرضنا بنيكاراجوا لنقدس اسمك في بحثنا الدؤوب والشاق عن العدل والسلام والحرية. كذلك لم تعد القدسية تخص فرداً بعينه، وإنما تجاوزت ذلك لقدسية الشعب الكادح، قدسية المناضلين ضد الطغيان أفرادا وجماعات، قدسية الأمهات اللاتي انشأن روابط لهن تحتج على شح الالبان وارتفاع الأسعار وزيادة معدلات موت الأطفال جوعاً وتطالب بالحقوق الأساسية للشعب كله «فليتقدس في سماء القارة التي تنهبها الشركات العملاقة».

من أجل هذا كله أفزع اللاهوت الجديد البابا يوحنا بولس الثاني وحليفه الرئيس ريجان. فحيثما نشأت الكنيسة الشعبية التفت حولها الجماهير الفقيرة وأخذت تراتيلها تلتحم بالنهوض الشعبي والنضال التحرري في القارة وهو ما يهدد رجال الدين الرسميين المرتبطين بالسلطة وبكبار الملاك الذين يخشون في أمريكا اللاتينية (وفي مصر) كما في جميع أنحاء العالم نهوض الشعب سواء كان هؤلاء الملاك من المسلمين أو النصارى أو اليهود أو البوذيين أو السيخ. فما بالنا إذا كان الفاتيكان نفسه هو أحد «كبار» هؤلاء الملاك الكبار في العالم أجمع حيث يتمتع بميزة اضافية هي كونه المعقل الفكري والروحي التقليدي للكاثوليكية.

حلف المضطهدين

ما أن تخرج شرارة لاهوت التحرير من أمريكا اللاتينية إلى كنائس افريقيا وآسيا وأوربا وايطاليا نفسها حيث المقر البابوي إلا وترتفع راية تحالف أكثر قدسية من أي تحالف اخر عرفه التاريخ الإنساني.. لأنه سيكون تحالفاً لكل المضطهدين، من أي ملة، مؤمنين وغير مؤمنين، كما في نيكاراجوا للإطاحة بأعمدة الظلم الأخيرة على كوكبنا. وهو تحالف مارسته الكنيسة الشعبية ولاهوتها للتحرير مع الجبهة الساندينستية والقوى الماركسية اللينينية حتى استولوا معاً على السلطة وأسقطوا أعتى الدكتاتوريات في أمريكا اللاتينية.. دكتاتورية «سوموزا» المحروسة بحراب أمريكا وأساطيلها وشركات سلاحها وترسانة دعايتها، ومباركة البابا يوحنا بولس الثاني.

وعلى أرض القارة الملتهبة يسقط اساقفة رفعوا راية الكنيسة الشعبية واعتنقوا لاهوت التحرير شهداء فيتجدد نداء الفاتيكان بالدعوة للاعنف والتأسي على مخازي الثورات.

الوجه الحقيقي للمسيح

وحيث تحتدم المقاومة المسلحة الباسلة في جنوب لبنان ضد الغزو الصهيوني

يستنكر البابا سفك الدماء الذي تقوم به جميع الأطراف. ثم يستقبل «شمعون بيريز» رئيس وزراء إسرائيل ويبتسم له ويقدم الهدايا ويتقبل منه الهدايا. فيقول الكاهن الكاثوليكي اللبناني «مرسال حداد» في رسالة مفتوحة وحزينة إلى البابا: «انني عند قراءة الانجيل اكتشف للسيد المسيح وجهاً غير الوجه الذي تبدون أنتم فيه باستقبالكم ناكري يسوع. فهل تمثلون مسيحاً آخر غير الذي ورد ذكره في الانجيل يا قداسة البابا؟ فإن مسيح الانجيل لم يساوم الصهاينة يوما».

يدري أو لا يدري.. يقف الكاهن اللبناني في صف لاهوت التحرير والكنيسة الشعبية، يقف في الطرف النقيض للبابا، وفي كل منهما تتجسد رؤية مغايرة للدين عامة وللمسيحية خاصة. الأولى ترى الله منحازاً للفقراء والكادحين ولتحرير الانسان من كل قهر، والأخرى تراه - معها منحازاً لرأس المال والاستعمار نصيراً لكل قهر. الأولى تدعوه للنضال والأخرى تدعوه للصبر اللانهائى في انتظار الآخرة ولأن يدير خده الأيسر لمن يضربه على الخد الأيمن ثم يدعو لضاربه بالمغفرة. وباسم هذه المقولة الأخيرة المنزوعة من سياقها يحرم البابا بمرسوم كنسي نضال القساوسة الكاثوليك من أجل التحرير السياسي والاجتماعي والاقتصادي والروحي لملايين البشر، ويصف ثورات الشعوب بأنها عمل مخز إذا ما اتصف بالعنف وهو لا يذكر أبداً عنف الغاصبين والمستبدين والقتلة.

يكتشف الحليفان ريجان والبابا أن المؤمنين في هذا العالم من كل الأديان ليسوا شيئاً واحداً كما أن غير المؤمنين كذلك ليسوا شيئاً واحداً وأن الدين يتأثر بواقع الحياة كما يؤثر فيه ويكتسب الطابع الذي يغلب عليه معتنقوه، وليس هناك دين تقدمي أو دين رجعي وإنما هناك القوة التي تستخدم الدين تقدمية أو رجعية. تقدمية ترى في جوهره «صرخات ألم حارة من عنف الشقاء الذي يعانيه الإنسان الكادح على هذه الأرض، ترى فيه قلب عالم لا قلب له وروح نظام بلا روح.. الدين تعبير عن بؤس فعلي واحتجاج عليه. ويرى التقدميون أن بوسع الإنسان أن يقيم الجنة على الأرض سواء كان ينتظره جنة في السماء أو لا ينتظره، الشيء الذي يتعارض تماماً مع رؤية الرجعيين الذين يرون مصائب الإنسان في الدنيا قدراً لابد أن يستعين عليه بالصبر الجميل وينتظر التعويض عنه في النعيم الدائم بالآخرة فيبررون الاستغلال ويدافعون عن مصالح التجار وكبار الملاك بحجة التقسيم الإلهي المسبق لأنصبة البشر من ثروات هذه الدنيا، ويبتعدون مسافة شاسعة عن الجوهر الأصيل لكل دين: أي الاحتجاج على الشقاء والاستغلال والثورة الضمنية عليهما ونشدان العدل.

وفي بلادنا، وبسبب المد الرجعي الكاسح الذي تغذيه أموال البترول، حول كبار الشيوخ وسدنة السلطان الدين الاسلامي من دين للمستضعفين في الأرض إلى دين يخدم الشركات المتعددة الجنسية من الباب الخلفي فيضفون على التقسيم البربري

للثروة رداء قدسياً زائفاً ويسرفون في إصدار الفتاوى الشبيهة بوثيقة يوحنا بولس.

لقد صدرت وثيقة البابا في نهاية العام الماضي وأخذت أجهزة الدعاية الاستعمارية تذكر بها هذه الأيام وتعيد ترجمتها مع الحملة التي تشنها قوات المرتزقة ضد الحكومة الثورية في نيكاراجوا حيث يتزايد تأييد القسس للاجراءات الثورية بعد أن قررت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فرض مقاطعة شاملة ضد نيكاراجوا. واتسعت مناطق نفوذ «لاهوت التحرير» في بيرو وفى الدول المحيطة بها في أمريكا الجنوبية والوسطى حيث يوحد الفقراء صفوفهم وينظمون قواهم قادمين من منابع مختلفة ليقوضوا -في عصر الانتقال إلى الاشتراكية - حصوناً للظلم والهوان.

الدين من أجل الإنسان

على بعد بضعة الاف من الكيلو مترات وفي عاصمة الفاتيكان «روما» كان البابا «يوحنا بولس الثاني» المتحالف بدوره مع أعتى قوى الرجعية في العالم يصدر بالرغم منه واتقاء لما هو أخطر وثيقة جديدة تشهد «للاهوت التحرير» وقساوسته الشجعان بأنهم كانوا على حق في بعض ما نادوا به وصاغوه ودافعوا عنه ودفعوا ثمنه منذ ما يقرب من عشرين عاما. فأخيرا بعد مئات المشاحنات والرحلات والدراسات، بعد وقف القساوسة وارغامهم على الصمت ومنعهم من إقامة القداس بأمر منه ومصادرة كتبهم ومناشدة رعاياهُم الفقراء حتى لا يوغلوا في كراهية الأغنياء، اخيراً بعد كل هذا النضال والعناء اضطر الفاتيكان والبابا البولوني الأصل أن يصدر تعليمات جديدة ومجموعة من الوصايا البابوية تقول لرعايا الكنيسة الكاثوليكية كلاماً حول «الحرية والتحرير» بعد أن انتشر «لاهوت التحرير» من أرض منبته في أمريكا اللاتينية ليصل إلى الكنائس الكاثوليكية في جميع أنحاء العالم الثالث ويتوغل في صلب تكوينها، ويعلن البابا عن تصميم الفاتيكان على الاستجابة «لقلق وحيرة الإنسان المعاصر الذي يعاني من القهر ويتوق إلى الحرية».

فانه لمن المشروع تماماً ان يلجأ هؤلاء الذين يعانون من قهر الأغنياء والساسة إلى العمل لازاحة هذا القهر. ولأول مرة أيضا يُدلي الفاتيكان برأي ايجابي في الكفاح المسلح فيرى أنه مسموح به كملاذ أخير ضد الطغيان الجاثم وأن الحفاظ على حقوق الملكية الخاصة لابد أن تأتي بعد تطبيق المبدأ الأسمى والذي يقول بأن الخيرات في هذا العالم هي من نصيب الجميع.

في عام ١٩٦٨ وفي كولومبيا خرج بيان اساقفة العالم الثالث الذي وقع عليه ثمانمئة من رجال الدين في القارة انتقدوا بحدة وبلغة جديدة على الكنيسة الممارسة الاجتماعية الاقتصادية غير الإنسانية كما تضمنت الوثيقة تعبيرات قريبة من الاشتراكية وكان ذلك قبل أن يستفيد القساوسة العلماء من الماركسية. وقبل إصدارها

توجه ألف من رجال الدين في أمريكا اللاتينية إلى هيئاتهم العليا برسالة مفتوحة مذكرين هذه الهيئات بأن عذابات الجماهير الشعبية تكمن في «النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي السائد لدينا» وانه يجب على المسيحيين «أن يتضامنوا مع النضال من أجل حقوق الكادحين واقامة مجتمع أكثر عدالة».

وفي شيلي يعود الفضل في توحيد فصائل المقاومة الوطنية ضد نظام بنوشيه الفاشي إلى قسيس ينتمي إلى اللاهوت الجديد أي ينتمي إلى «الدين من أجل الانسان».

وفي البرازيل يبرز واحد من ألمع منظري ومناضلي هذا اللاهوت، ويتساءل القس «لونارد بوف»: ماذا تريد الدول الامبريالية من شعوب أمريكا اللاتينية.. من استغلال هذه الشعوب؟ ويرد «تريد الحفاظ على المستوى الذي أحرزته في تسريع وتركيز انتاجها هي. ومن هنا تحرص على إقامة علاقات غير متكافئة ومجحفة جدا مع دول أخرى غنية بالخامات ولكنها متخلفة تكنولوجيا، إن هذه الدول الاخيرة محكوم عليها بالبقاء في التخلف الذي يبرز كاتجاه نقيض للتنمية». وكان الجوع في البرازيل قد استشرى رغم النشاط الواسع للشركات المتعددة الجنسية ويقول الأب بوف أيضا:

«إن ما نقصد إليه لم يعد مجرد الخلاص من الإثم (الذي ينبغي علينا جميعا ان نتخلص منه) بل التحرر بالمعنى التاريخي أي اقتصادياً وسياسياً وثقافياً» ويضيف «إن مثل هذا التحرر بوصفه عملية تتطلب تحليلاً مسهباً للمجتمع ومعرفة على أي نحو يجرى انتاج وتوزيع الثروات وأي مكان يشغله كل انسان من سلسلة: الرأسمال - العمل والاستفادة من نتائج العمل، وان الجماعات التي استيقظت لفهم هذا الأمر أصبحت تدرك الآن إلام ترجع انتهاكات حقوق الانسان وفقر فئات معينة من السكان والإجحاف الاجتماعي والتي تأتي جميعا ليس من الارادة الشريرة لأصحاب الأمر والنهي بل عن النظام نفسه الذي يرجون له عادة كنظام انساني ومسيحي وديمقراطي.

وقبل أن يصدر الفاتيكان وثيقته الجديدة التي يعترف فيها ببعض مبررات اللاهوت الجديد كان قد أوقف الأب «بوف» عن القاء المحاضرات أو الادلاء بالأحاديث أو ممارسة وظائفه الكنسية أو الجماعية. كان ذلك حرماناً شاملاً كعقاب احتج عليه آلاف القساوسة باعتباره انتهاكاً لحقوق الإنسان. وتلقى الفاتيكان آلاف الرسائل التي تحتج على هذا الانتهاك من أتباع اللاهوت الجديد وقد سرى فيهم وعي حقيقي بقدرة الجماعة المنظمة على التصدي للقهر حتى لو كان «الراعي» هو الذي يفرضه ويمارسه.

وقبل إصدار الوثيقة أيضاً اصدر الفاتيكان أوامره لإحدى دور النشر التابعة للكنيسة في البرازيل بوقف نشر مجموعة مختارات أدب «اللاهوت الجديد» لأن أكثر ما يثير انزعاج كبار القسس المحافظين في هذه النصوص وفي اللاهوت كله هو فكرة الصراع الطبقي التي استعارها من الماركسية والتي يرونها مناقضة تماماً لدعوة

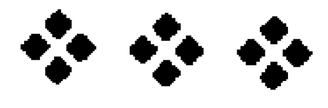
المسيحية «لكل إنسان على هذه الأرض أن يحب جاره». في حين يرى اللاهوت الجديد ان هذا الحب غير جائز حين تكون العلاقة بين الجارين كما هو واقع الحال في أمريكا اللاتينية وفي كثير من بلدان العالم الثالث، علاقة استغلال حيث يتجاوز البؤس والبذخ والشقاء والسعادة، الأكواخ والقصور، الفقر والغنى.

علاقات الاستغلال والفساد

فهل يا ترى تختلف الظروف الواقعية والمنطلقات الدينية في بلادنا عنها في أمريكا اللاتينية إلى هذا الحد الذي يجعل من قوة الدين هناك حافزاً على إنجاز التحرر ويسوق الجماعات الدينية هنا إلى الوقوف ضد تجديد الحياة وتقدمها رغم أن الدين الإسلامي الحنيف كآخر الاديان كان ومازال أعمق صلة بالحياة على هذه الأرض وأشد طموحاً لتغييرها لصالح الإنسان؟

وكيف تبين للقساوسة الشبان الفقراء الخارجين من أعماق الشعب أن الروح الديمقراطي الثوري التقدمي للديانة المسيحية، هذه الروح التي تبلورت من نشأة الدين الأولى احتجاجاً على الشقاء الإنساني قد امتصها وأفزعها نفوذ المال وهيمنته، فرضوا مجرد التبشير بآخرة جميلة لأن هذا التبشير وحده ينطوي على خديعة كبرى للمؤمنين فقرروا أن يبحثوا، لا في النصوص وحدها وإنما في واقع حياة الشعب، كيف ينبغي أن يرتبط الدين بالدفاع عن حق الكادحين على الأرض في الحياة الانسانية على هذه الأرض أولا، بل وتنظيم هؤلاء الكادحين كي يحسنوا الدفاع عن هذا الحق ويزيلوا من طريق نضالهم كل العقبات الواقعية التي يضعها رجال الدين الكبار بتعاون وثيق مع رأس المال حتى يلوح التناقض بين المسيحية وطموح الانسان على هذه الأرض مستعصيا على الحل.

فما الذي أبقى الجماعات الدينية في بلادنا واقفة على هامش الروح تريد أن تصلح الفساد في النفوس والسلوك والملابس، بينما هو يتفشى في علاقات الاستغلال القائمة بوحشية في واقع الحياة؟ وبينما يأتي هؤلاء الشبان غالباً من قلب هذا الواقع البائس؟! فلماذا يناضل القساوسة الشبان في قلب رعايا كنائسهم من أجل تحرير الوطن من النفوذ الاجنبي وتحرير المواطن من الحاجة بينما يناضل الأمراء الشباب في بلادنا الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر لتحرير النفوس من المرض وتحرير الطرقات من النساء؟!



غيوم على المغرب

غيوم على المغرب

حين حطت الطائرة في مطار الدار البيضاء - محمد الخامس - كان التعب قد نال منا، الدكتور مراد وهبة وأنا، ففي انتظار طائرتنا هذه رفضت سلطات مطار روما أن تعطينا تأشيرة دخول لعدة ساعات، كنا نريد أن نتجول في المدينة بدل الاختناق في المطار انتظاراً لكننا مصريان فلا، وكانت الطائرة المختطفة مازالت قابعة في مطار فاليتا، وأخبارها تملأ الدنيا وكان أن حبسونا في المطار طيلة ساعات ثمانية.

تراجعت كل الصور القديمة.. قبل عشرين عاماً زرت المغرب. كأنما الرباط هي ملاعب الصبا، وكأنما الدار البيضاء حلم قديم. ها هو ماض يمسحه التعب وتتراجع الصور التي أشعل الحنين لهذا البلد الجميل كل تفاصيلها قبل أيام أقول لنفسي إنه الليل، أم إنها برودة العاملات في المطار، على أي حال لقد شاخ أصدقائي كما شخت حتماً، لماذا أتوقع حرارة خاصة ممن لا أعرف. لقد كبرت. لي ابنة شابة تغني وملف في البوليس السياسي وبصمات.

كل المدن تتشابه! لماذا أنتظر رعشة خاصة في القلب أمام الرباط؟! الحكمة الباردة حتماً سوف تغزوني، وسوف أحلل الأمور «الكبرى» على طريقة الشيوخ وتمسخني الرزانة التي تستخلص دائماً في آخر التحليل وعبر متعرجات كثيرة، إن ما نحن فيه هو ثابت وأبدي ولن يتزحزح ابداً أو يتغير، علينا حمايته أو الكارثة، علينا مساندته أو الموت للجميع.

أقول لو أنني أستطيع أن أحميه فلماذا أعجز عن صد الكارثة، ولو أملك مساندته فلماذا لا أملك أن أمنع هذا الموت؟ ما هذا القانون العبثي الجديد الذي يدعو باسم الرزانة للاستكانة إلى واقع هو متحول بالضرورة ونحن طرف أصيل في عملية تحوله؟ ومن نحن؟ هذا أيضاً سؤال وجدته في المغرب، فعجز البديل الديمقراطي العربي شامل، يسألني العجوز المغربي في فندقي بالرباط وهو يبتسم بأدب بالغ: هل أنت

كاتبة يا أستاذة؟

أرد بلهفة: نعم.. نعم.. نعم، وأقول لنفسي هاهم يعرفون كتاب مصر مثلما يعرفون الممثلين، نحن محظوظون إذن، حتى على حدود المحيط الأطلسي يقرأوننا.

- ماذا تكتبين؟

وجمت وهمست لنفسي: لا أدري

صمت قليلاً ثم سألني أن أعطيه شيئا يقرأه. ربما أدرك العجوز المهذب مأزقي وسؤالي الذي هو مأزق وسؤال عشرات من المثقفين المغاربة التقدميين الذين ينغمسون في المهمات العملية هرباً من الكتابة ومن السؤال عن جدواها. ماذا أكتب! وما جدوى أي كتابة في ظل هذه الهزيمة، فضلاً عن هذه الأمية الواسعة، وحيث أغلب الذين نحبهم ونكتب من أجلهم يعجزون عن قراءتنا! ما جدوى أي كتابة؟ ما جدواها ؟ أسأل العجوز عن أجره كما لو أنني أريد أن أعبر المحيط إليه رغم أنه يقرأ.

ينظر في سلة المهملات التي ألقيت بها عشرات من الأوراق والملفات الفارغة لا يجيب عن سؤالي بل يسألني: *تحتاجين إلى هذه الأوراق يا استاذة؟*

أعود إلى الوراء عشرين عاماً. كان عليَّ، حينذاك لدى أول زيارة للمغرب، أن أغلق الباب باحكام في فندقي الصغير. إذ القمع يمشي على قدمين سافراً في الطرقات «هو الآن يتخفى!». زمانها كان التحدي سافراً، أيضا وجوه الصبيه والفتيات تحتج، لها رموزها شبه المقدسة ولم تسقط. جرح المغرب العميق ينبثق منه فرح خفي يعلن عن نفسه في الزوايا المعتمة ويحصن نفسه ضد المخبرين والكلاب والقناصة ورسل السلطان إلى الطرقات والمحاكم التى تُملي عليها الأحكام قبل أن تتشكل القضية.

عندما كنت صغيرة وجميلة .. ماذا جرى! حينما تحدثت بزهو عن تجربة عبد الناصر الفريدة، تطلعوا إلي: ها هي شابة من مصر تتحدث بفخرٍ عن اشتراكية قادمة وتسمي الاتحاد الاشتراكي حزباً. كنت أدافع عن يقين لارجعة فيهِ ولا سؤال، لم تكن الهزيمة قد كشفت كل هذا الخراب.. لتصبح مصر مثل المغرب بلداً تابعاً حتى النخاع.

لأسفل السافلين.. لمنتهى المنتهى

ماذا جرى؟! إنه موت مرحلة، ومازال الجديد يقاتل حتى يسود ويدفن الجثث التي تعفنت. قال صديقي الذي مازال شابا: «كنت طالباً عندما زرتنا في مراكش سنة ١٩٦٦.. ساعتها تحدثت إليّ قائلة بعتاب، وأنا لا أنسى ذلك، كان في العتاب فرح أيضاً».

- ياه أنكم متطرفون جداً. كانت صورة، وتكاد تكون حية لشي جيفارا معلقة

بعرض الحائط وهو يحمل بندقيته ويبتسم، ويرسم مع الابتسامة الواسعة علامة نصر، ولم يكن قد استشهد بعد.. ولم تكن ٦٧.. ولم..! والآن فإن الرفاق القدامى يبحثون عن مكان ولو صغير معترف به. أو مناضلون عادوا من المهجر، الذي قضوا فيه أجمل سنين العمر يكافحون في صمت من أجل المستقبل، عادوا ليجدوا كل شيء مرتباً بدونهم.. ليس لهم مكان في العالم الذي يبدو وكأنه مستقر حيث تتداخل الخطوط التي كانت في زمن سابق واضحة فاصلة. تقترب المعارضة من الملك لأن قضية الصحراء معلقة بالتغيير، مؤقتا ربما، والعجز يلف الجميع. تسلل القمع إلى أعمق الأعماق، فمن يخترق هذا السياج مجترئاً يجد السجن أو المنفى أو القتل غيلة في انتظاره. توازن الضعف هو اتفاق ضمني غير مكتوب.

زمان.. زمان

زمان.. زمان قبل عشرين عاماً كان كل شيء يعوق الحركة مؤقتاً والتضحية مجد أو فخر لا خسارة شخصية ومن يضحي لا يعلن.. والآن استقرت الأشياء في خانات، كل شيء في خانته كأنه اتفاق يتجمد في برودة الانتظار. لقد هزمنا.

لامني المناضلون المغاربة بمودة فياضة لأن ما كتبته في بداية عام ١٩٦٧ عن حياتهم السياسية يتضمن اخطاء. قلت: ولكنها كانت كتابة مزهوة فخورة واثقة في المستقبل.

والآن.. هذه كتابة عن المغرب لعلها لا تتضمن خطأ واحداً كبيراً لكن الزهو أقل. تواضعت الأحلام وأصبح المستقبل يبتعد، ولو أن مدينة الصفيح والبؤس ليست مدينتي لاستطعت أن أكون سائحة. قلت: سوف أخبئ وجهي بعيداً ويكفيني مافي مصر لكن المغرب وطني، وها هي مرارة حياة الكادحين تخترق قلبي سهماً نافذاً في الصميم، أتعذب في وطني.. هنا وهناك عاجزة دوماً عن القفز على أسوار البؤس الاجتماعي والهوان القومي لأصنع فرحاً، ولو طائراً صغيراً يشير بجناحيه إلى المستقبل، ولو طائراً صغيراً يحط هنا الآن.. على قلبي يفصح عن أسماء المدن والقرى المغربية التي أحببت أهلها في الماضي، ومازالت أحبها وأحبهم ليقول: ما من كدح يذهب سدى. ملح الأرض أنتم ومستقبل هذا العالم. ماذا يقول أيضاً لغيثه بن بركة زوجة المهدي بن بركة التي أقسمت أن لا تطأ قدمها أرض المغرب قبل أن تشهد يوم انتصار على الظلم، قبل أن ينفتح حتى النهاية ملف اختطاف واغتيال زوجها، ماذا يقول لعبد القادر الشاوي المناضل الروائي الفنان، الذي يقضي حكماً بعشرين عاماً ويكتب ويشبع كتاباته بحب وتفاؤل يكفي مائة بلد. ماذا يقول لعمال الدار البيضاء والرباط وطنجة وتطوان، ماذا يقول لانتفاضة البوادي المتقطعة وقد حرم البوليس على

الحركة السياسية أن تقترب من الريف فخرجت الانتفاضات دامية عشوائية مجهضة في كل مرة، هل يختزل كل الآمهم الحالية في كلمتين.. ويقول بثقة: المستقبل للعمال.

هكذا يقول التاريخ رغم كل شيء، رغم أن القوى السياسية التقدمية في المغرب كما في مصر عاجزة عن ابتداع صيغة للعمل المشترك الطويل المدى، ورغم أن الأمور تبدو وكأنها تفلت منها حيث ينسحب الكادحون إلى اللامبالاة وتصبح السياسة شغل القلة وهم الطليعة. ورغم كل شيء علينا أن ننظر إلى خريطة العالم كلها لا إلى مواطئ أقدامنا، حينئذ فقط نعرف أن انتصار الاشتراكية حقيقة لا جدال فيها، كل الشعوب تأتي إليها بطريقتها ومازلنا نختبر طريقنا.

عن القلب والأطراف

غابات القلب كثرٌ ولا مخرج. هذا عن القلب الذي وجدته معتلاً بطريقة ما، فماذا عن الأعضاء والأطراف وباقي الجسد؟ أمشي في شوارع الرباط التي تغسل قدميها في مياه الأطلسي بيضاء نظيفة، لو لم يغسلها الفرح غسلها المطر. وحدها تستطيع أن تحيي كل شيء، مع ذلك فالقلب واجم، شيخوخة مبكرة تلحقه، ويبطئ الانتظار الطويل من ضرباته فتسترخي الأعضاء والأطراف، يضخ القلب ما هو ضروري فقط من دماء الحياة لتستقيم وتمشي، ويصبح هوان القوى الحية في الشعب التي تزيحها البطالة والعسف والجوع إلى الهامش. يصبح الهوان كأنه شيء عادي. فأين يا ترى يلتمس القلب العزاء ويجد مخرجاً؟ أين.. في التاريخ؟

أقرأ في عيون الفتيات والشبان الذين احتجزت جوازات سفرهم والباحثين عن عمل والمهددين بالطرد. اقرأ مع الحيرة إجابة واحدة: إنه النضال المنظم الدؤوب الطويل حتى نخرج من دورة الهوان والتبعية مرة واحدة وإلى الأبد. نخرج من قبضة الكوكاكولا is it من العصر الأمريكي الذي نشر مظلته على بلدان العالم الثالث الرأسمالية وجرها بدهاء إلى حظيرة التابعين الضائعين، لتحمل جميعا سمات متشابهة- في مصر كما في المغرب. أقول وضعنا صعب فيقولون بل وضعنا نحن أصعب.

توصلنا إلى بيان عائلات المعتقلين السياسيين المضربين عن الطعام من مجموعة مراكش يذكرون فيه الرأي العام الدولي بأن إضراب أبنائهم قد تجاوز المائة يوم من أجل الدفاع عن مطالبهم البسيطة والمشروعة.

ها هو النضال الدؤوب يتصل حتى في المعتقلات والسجون المجهولة والمعلومة. عدوان جديد على مستوى حياة الجماهير المسحوقة، عنوان جريدة. «نحن ممثلو الجمعيات والهيئات السياسية النقابية والمهنية بمكناس والموقعين أسفله نطالب الحكومة أن تعمل على إيجاد حل عاجل لمشكل البطالة الذي يعيشه حاملو الشواهد العليا

«الشهادات» وذلك طبقاً لما تخوله لهم شواهدهم وما يخوله لهم القانون المعمول به في البلاد».

في عام واحد أعلن البوليس المغربي عن اعتقال ١٢٢٥٥ من الأحداث الذكور والإناث وتقديمهم إلي محاكم الجنح بتهم مختلفة: سرقة، سطو، تسول.. الخ. بينما تعيش أقلية من أبناء الأغنياء الكبار في أعلى مراحل التخمة الدائمة، يرزح أكثر من عشرة ملايين من أطفال الطبقات الكادحة في ظروف اجتماعية واقتصادية مفجعة، يتسكعون في الأزقة، يمسحون الأحذية، يبيعون اللبان والسجائر بالتقسيط.

حين انقض صبي جميل مهترئ الثياب على حذائي أمام الفندق شعرت بمهانة ما بعدها مهانة وعجزت حتى عن أن أبتسم له وأنا أرفض، بعد ذلك اعتدت هذا المشهد الذي يتكرر في كل مكان بالأحياء الراقية والفقيرة على السواء.

على العقل واليدين

ليس مسموحاً لنا أن نرفع لهجة الاحتجاج ولا أن نصرخ كما تفعلون في مصر! ووزير الداخلية في المغرب هو نفسه وزير الإعلام حتي يكون القيد محكماً على العقل واليدين معا. كيف؟

إثر واقعة صغيرة حدثت في التليفزيون حين استضاف أحد معدي البرامج مناضلاً عجوزاً ليتحدث عن تجربته في الحركة الوطنية فأورد في سياق ذكرياته واقعة كان طرف صلح فيها بين الطلبة الوطنيين الذين كانوا يرفضون اللقاء مع الملك محمد الخامس ومفاوضته وأقنعهم هو بأهمية هذا اللقاء والتحدث إلى الملك. أوقف التليفزيون البرنامج على الهواء واعتقلوا صاحبه. وتولى وزير الداخلية منصب وزير الاعلام وأصبحت خيوط القفاز الحريري أشد لمعاناً من ذي قبل.

على الطريق إلى الدار البيضاء من جديد طريق صغير يحمل هذه العلامة: إلى الصخيرات، وفي الصخيرات قبل ما يزيد على عشر سنوات حاول عدد من الضباط الإطاحة بالحكم الملكي وفشلوا وأعدمهم السلطان، ومنذ ذلك التاريخ توالت الانتفاضات في المدن والريف: إضراب شامل مرة، انتفاضات مسلحة مرة، ثم استرخاء مؤقت بين فوران وفوران. وفي هذا الاسترخاء المؤقت تتسرب الطاقة الثورية مع التعب المضني إلى اللامبالاة وما يشبه اليأس بين صفوف الشعب حيث الكدح من أجل العيش. ولأن المواجهة ليست قائمة حتى في الكلام يصلون للملك في الجوامع ويدعو له بعض الشيوخ: إن لنا سلطاناً طيبا.

وقال المسرحي الراحل محمود دياب مستشرفاً حالة انكسار مشابه قبل موته: «نعم إنه سلطان طيب يسمح لنا بالنوم. ووراء الابتسامة العصرية، والثقافة الفرنسية

والقصور المنيفة يتستر قمع وحشي لسلطان ضالع مع الشركات العالمية الكبري وطرف رابع رئيسي في مصالحها التي تنهب المغرب». وهو أيضا أغنى مالك في البلاد ويسمي نفسه خليفة المسلمين وأمير المؤمنين كأنما هو ظل الله على الأرض ووريث البيت الشريف».

تستهويني المقارنة: مديونية المغرب الخارجية ١٢ مليار دولار وعدد سكانه ٢٤ مليون نسمة و٤٤٪ من السكان النشطين عاطلون. وفي مصر تصل الديون الخارجية إلى ٤٤ مليار دولار.. و.. تتروح الهجرة من الريف إلى المدن من ٣٠ ألفاً إلى ٢٠٠ ألف سنوياً بسبب الفقر المتزايد في الريف. يقول الدكتور على النويجي إن الريف المصري على حافة المجاعة، يأكل الفلاح المصري وجبة واحدة ولا يزيد وزنه عن خمسين كيلو.

في المغرب إن «الأزمة التي تجتازها بلادنا ليست فقط أزمة خبز أو أزمة أجور أو أزمة مدارس أو أزمة سكن.. أنها كل ذلك في نفس الوقت. إن ما يحمي المغرب من التحلل الكامل هو التضامن الأسري لأن أي فرد يعمل يعتبر نفسه مسئولاً عن كل العاطلين والجياع في الأسرة». وتصرخ المعارضة التقدمية: الاكتفاء الذاتي في مجال الغذاء حتى لا نجوع.

واتساءل حين يتصاعد الدخان صباح الأحد من مدينة القصدير والقش التي تتجاور فيها البيوت وتلتصق كأنما تعلن عن تضامنها في مواجهة التوحش: ماذا يطبخون يا تري؟ وماذا يأكلون؟ كيف يعيش الناس كل هذه الآلام والفرح شحيح، كل هذا الجمال والقبح غالب، كل هذا الثراء والشعب بائس، كل... لن تنتهي الثنائيات والمفارقات.

ما العمل؟

السعي نحو الاشتراكية. وقد علمنا تاريخنا أنه ليست هناك اشتراكية خاصة ولقنتنا الهزيمة درساً مراً عن الطريق الوسط بين الاشتراكية والرأسمالية.

إن الاشتراكية واحدة، كمنهجية وكهدف قوامها الملكية الجماعية لوسائل الانتاج والتبادل، يديرها المنتجون بواسطة تنظيماتهم وجهاز الدولة الذي يكون جهازاً في خدمتهم، وتحت مراقبة تنظيماتهم الحزبية والمهنية. وكل ما عدا ذلك ما هو إلا تضليل وخلط باعتبار أن التضليل والخلط يشكلان نوعاً أساسياً من أنواع القمع الذي تمارسه الرجعية والطبقات المستغلة: «إن التضليل لسلاح فعال لديها في مواجهة حركات التحرير الشعبية» يقول حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية. وحقيقة واحدة باقية وسوف تبقي كما كانت في كل بلدان الوطن العربي: الكدح المضني للشعب حتى تقوم

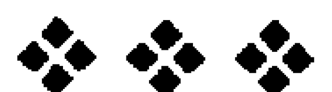
الحياة. الكدح الذي لو توقف مات، لو هدأ ما بقيت هناك حياة.

فسلام على الشعب العظيم، على مناضليه أحزابه ومنظماته، الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية. حزب التقدم والاشتراكية. منظمة العمل الديموقراطي الشعبي في مؤتمرها الأول النقابات والروابط، النساء والرجال، مدن الصفيح والبوادي، تراث الحضارة العربية والإسلامية.. المثقفون من كل المنابع عرب وبربر أميون وقوميون، ليلى التي لم تكن ولدت يوم زرت المغرب أول مرة، وهي الآن عاطلة وتنتظر حبيباً سجيناً، عجوز الفندق، وأطفال المدارس.

الغيوم الكثيفة أيها الوطن سوف تتدلى على الأرض وتسقط مطراً لتزهر أنت، وتخلق أنت ما تشوق إليه عمالك وفلاحوك ومناضلوك ودفعوا كل شيء في سبيله: مستقبل آخر تسقط فيه كل أشكال الاستبداد والمظالم.

وإلى عباس أحد قادة الحركة الوطنية العائد إلى باريس، ومعه كثير من الأسئلة عن مصر والمغرب أهدي هذه اليوميات.

أول يناير ١٩٨٦



بوركت أيها الطريق المستقيم

بوركت أيها الطريق المستقيم

«بوركت أيها الطريق المستقيم، بوركت أيها الطريق، وبوركت يا هذا المجنون الذي اخرجني من الضلال، ها هي النار ذات الشرار، عمت جميع المدن، عمت في كل قرية وكل دار». بهذه الكلمات اختتم الراوي المجنون «مولود» حكايته العاقلة عن «وقائع سنين النار» في فيلم جزائري بهذا الاسم كتبه وأخرجه ومثل الراوي فيه الفنان «الأخضر حامينا» رئيس مؤسسة السينما الجزائرية. وفي بداية هذا الشهر كان لابد أن تعم الاحتفالات جميع أرجاء الوطن العربي في الذكرى الحادية والثلاثين لانطلاق الثورة المسلحة في أول نوفمبر عام ١٩٥٤ التي توجها استقلال الجزائر عام ١٩٦٢ حين ارتفع في الخامس من يوليو العلم ذو النجوم الخضراء والهلال بعد مئة وثلاثين عاماً من الاستعمار الاستيطاني الفرنسي.

كان لابد أن نحتفل لنقول لهؤلاء الذين يستعجلون أي حل - ولو ذليل - لقضية الشعب الفلسطيني: لو أننا نقارن بين السنين فالاستيطان في فلسطين لم يستكمل بعد أعوامه الاربعين. فإن قالوا وهم يستعجلون ما يتصورونه مغانم: إن الزمن غير الزمن. قلنا نعم ان الزمن غير الزمن ولكن هذا الزمن على نحو خاص هو لصالح الذين يكافحون بكل السبل من أجل قضيتهم، هو لصالحهم، على خط مستقيم. فبوركت أيها الطريق المستقيم.. بوركت أيها الطريق.

حين انطلقت شرارة الكفاح المسلح أخذ الراوي «مولود» يطوف أرجاء مدينته، وهي كأي مدينة جزائرية كانت قد دفعت نصيبها من الشقاء والهوان، من شظف العيش وإذلال المستعمرين وعملائهم، وكان مولود يطلق عليهم من قبل: «المدفونون في الطين مثل الذباب الذي يحوم فوق الجثث في كل مكان».

أخذ يحرضهم حتي يهبوا: «كانت قوة العدو المستعمر تكمن واقعياً في عقدة العجز عند ضحاياه، وهكذا فإن للأفعى نظرة ساحرة تقدر أن تشل من بعيد ذلك

العصفور الذي ينسى أن يطير من غصنه ويستسلم للسقوط جامداً تحت الشجرة قرب الأفعى».

«مولود» يريد كمحرض جماهيري لبس قناع الجنون أن يوقظ العصفور فيصفه بالذبابة: «صوت البارود هو الوحيد.. وهو اللي يحرر خدام أو عبيد». نعم كان الجميع عبيدا لدى المستعمر خداماً له.

وقف أحد النواب الفرنسيين في الجمعية الوطنية التأسيسية بباريس يصف حالة الاستعمار المخزي بعد أن عاش طفولته برفقة أبيه في الجزائر، فقال: «أذكر أن أبي كان يأمر حين لا يكون مع الجزائري المال الكافي لتسديد الضريبة أن تقيد يداه وراء ظهره ويُترك في حرارة الشمس إلى أن يأتي من أقربائه من يدفع عنه وكان بعض الحكام يمعنون في هذا العذاب فيصبون على رأس الوطني المقيد والمعرض هكذا للشمس حليباً يجتذب الذباب. هذا مشهد لم يغب عن ذاكرتي قط. غير أن أبي ما كان على الأرجح لينال حين موته وسام «الكومندور دي لاليجيون دونير» لو لم يكن تصرف ذلك التصرف».

نالت كل الطبقات نصيبها من العذاب ماعدا الخونة، وحين انتفض الشعب أسهم الجميع، وإن بدرجات متفاوته، في الحرب، وإن دفع الفقراء والكادحون الثمن الأعظم كما هي العادة.

تعلم الأطفال كلمات السر والطرق السرية إلى المخابئ التي يحتمي بها الثوار، ومسالك الجبال الوعرة. ذاقوا مرارة الجوع.. فماذا يهم! ألم يجوعوا من قبل المذلة؟ والآن ينهضون بكرامة.

من كل المنابع جاءوا.. «أحمد» قادماً من أعماق الشعب، والذي كان قد هجر قريته بسبب الجفاف بحثا عن الرزق، يصبح حدادا ليصنع الأسلحة، تتجلى فيه بسرعة مهارات كانت مدفونة، ويلتحق بخلية «سي العربي» المثقف الثوري الخارج من سجن المحتل والذي يرفض منذ البداية فكرة الحوار مع الاستعمار «فقد غزا البلاد بالسلاح ولن يخرج إلا بالسلاح» وتشتعل النار، ويقول مولود:

«افرحوا يا أهل المدينة.. بدأوا الزحف متشوقين للاستشهاد..
والويل والخزي والعار..
لمن لا يشارك في هذا النهار..
الذي تشتعل فيه النار»

وبعد ثلاثين عاماً من اندلاع الكفاح المسلح في الجزائر كان مراهقون ومراهقات في عمر الزهور والفرح يتشوقون بدورهم للاستشهاد في الجنوب اللبناني وفي فلسطين المحتلة ذوداً عن وطن مغتصب وأمل وذكريات.

ولابد انه من بين ذكريات هؤلاء الصبيان والفتيات تلك الملامح الباسلة التي

داستها سنون الهوان العربي وصانعوه، ملامح مناضلين بواسل في جبال الأطلس والأوراس وجرجرة، في مدن الشرق والغرب الجزائري خطت علاماتها على طريق التحرير العربي، ولم تكن قد أخطأت الطريق ابداً ولا ظنت الأعداء أصدقاء أو البهتان حقاً أو الركوع في حضرة الفاتحين صلاة أو الاستسلام سلاماً.. أو الخيانة نصراً.. كانوا يقطعون الطريق المستقيم الذي باركه «مولود».. طريق الكفاح المسلح.

اختار الشعب الجزائري طريق الكفاح المسلح بدءاً من عام ١٩٥٤.. فقبل ذلك التاريخ جرب شعب الجزائر كل أشكال العمل، ولم يكن تدفق المكافحين على جبهة التحرير من كل المنابع والجهات إلا محصلة لهبات فلاحية واضرابات عمالية ومعارك انتخابية خاضتها الأحزاب التى نشأت في ظل الاحتلال والتي راود قادتها لزمن طويل وهم التحرير عن طريق برلمان العدو، كما راود الآخرين وهم التحرير «بالحوار» بالرغم من عدم التكافؤ في ميزان القوى العسكري، ذلك الميزان الذي لا يرجح ابداً لحساب حركة التحرير الوطني إلا إذا انخرط فيها الشعب كله بكل طاقاته بجيشه المنظم وبجيشه الشعبي.. إلا اذا أبدع الشعب فيها نفسه وصب كل أشواق روحه وأحلام فلاحيه، وعماله، ومثقفيه، نسائه ورجاله.

كان الشعب الجزائري يتعرض لبطش روحي من نوع خاص يمحو لغته وشخصيته الوطنية ودينه، وخرجت جمعية العلماء لتقود الشعب على طريقتها للحفاظ على مقوماته في مواجهة المحتل وصنائعه، إذ كان الفرنسيون يستأجرون بعض رجال الدين الذين يتفننون في «تنويم» الناس لصالح أسيادهم، فكانوا يلحون عليهم باطاعة الله وأولى الأمر منهم.

ووقف سي العربي في فيلم «سنين النار» في وجه الشيخ المأجور، وكان هو خارجاً من السجن ملاحقاً ليسأل: «لماذا لا تحدثنا أيها الشيخ عن الجهاد وعن الحق وعن الأبطال الذين يدافعون عن وطنهم.. إن ديننا يحثنا على الجهاد ضد الظلم».

فرد الشيخ المأجور: «هذا بيت الله ومن أراد السياسة فليذهب إلى مكان آخر».

وفي المساء كان «سي العربي» يتلقي العذاب على أيدي الجنود الفرنسيين في مبنى الشرطة، وكان النائمون يستيقظون على الحقائق البسيطة وقد سبق أن رأوا أعداءهم يحولون مساجدهم إلى اسطبلات وثكنات، فقد حول العلماء الجوامع إلى مكتبه ومدرسة، فهدم جامع كان يعني هدم مدرسة ومكتبة وقاعة محاضرات وبيت للشعب وجمعية للشورى أو الاستشارة ومتحف موسيقي يدرس فيه تجويد القرآن، وهو فن يتطلب معرفة مسبقة بمقامات الموسيقى الكلاسيكية أو الشعبية الاندلسية أو الشرقية.

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس أول رئيس لجمعية العلماء: «خطيباً ساحراً ومتواضعاً كأحد أبناء الشعب».. فالاسلام هو دين المستضعفين في الأرض، دين

الحرية والعدل ودفع المظالم عن الناس.

يسأل رفاق سي العربي الذين كانوا قد انخرطوا في خليته للكفاح المسلح. يسألون عن مكان احتجازه فيجيب «مولود» على أحدهم قائلا: «انظر ليس بينك وبينه سوى الطريق» كان الطريق وعرا شائكاً طويلاً، لكنه هو الطريق. من قبل قال لهم «مولود» الذي ادعى الجنون: لابد أن تصابوا بالجنون مثلي حتي تحطموا الجدران.

وحتى تصل الفرق الثورية المسلحة إلى مخافر الشرطة لتدمرها وتحرر المعتقلين الذين يتعرضون للتعذيب وتلزم جنود الاحتلال وخدمهم حدود الخوف والليل ثم الانسحاب، كان عليها أن تقطع الطريق الطويل: تنظيم الجماهير واستنهاضها للانخراط بكامل طاقتها في الكفاح ضد الاستعمار، الكفاح الشامل. فما من طرف خارجي يستطيع أن يقرر لصاحب القضية حاجاته أو يملي عليه اختياراته إلا إذا استنام هو للإرادة الخارجية واهدار طاقاته وقبل دور التابع الذليل.

قبل شهور قليلة من اندلاع الحرب في الجزائر كان شعب صغير آخر في آسيا يلقن الاستعمار الفرنسي درساً، إذ الحق جيش التحرير الفيتنامي بقيادة «هوشي منه» و«جياب» هزيمة شاملة بالغزاة الفرنسيين في «ديان بيان فو» التي كان سقوطها في أيدي الثوار علامة من العلامات الكبرى لانتصار حركة التحرير الوطنى في عصرنا، وسرعان ما انخرط هوشي منه وجياب في محاربة الاستعمار الأمريكي. كانت جحافل الفلاحين الفقراء وطليعتهم العمالية المنظمة وجيشهم الثوري يحققون النصر، وقد أرشدت طليعتهم النظرية الاشتراكية العلمية فأخذت تقرأ واقعها الخاص في ضوئها بصورة خلاقة مبدعة تدخل فيها كل العناصر الايجابية في تراث الشعب وثقافته لتصبح مرتكزات لمقاومة الغزاة، وفي ضوئها عرف الشعب الصغير من أجل أي الاهداف يكافح، ومن هم أصدقاؤه ومن هم اعداؤه، داخل الوطن وعلى امتداد المعمورة.

ألهمت فيتنام الجزائر كما ألهمت كوبا بعد أعوام قليلة. اختبر رجال الفرق الأجنبية المجندين سخرة في جيش الغزو الفرنسي - وبينهم جزائريون انتزعوا من الجبال والقرى - كيف يستبسل العمال والفلاحون في الدفاع عن وطنهم، وعاد هؤلاء إلى أوطانهم ليضعوا مع آخرين الخميرة الثورية وقد تعلقت قلوبهم وأبصارهم ببطولة شعب يواجه بدوره ظروفاً قاسية وينتصر على نفس العدو الذي كان قد تلقى على أيدي الفاشيين في الحرب العالمية الثانية هزيمة منكرة انقذته منها مقاومة الشعب الفرنسي المتنامية واستبسال الجيش والعمال والفلاحين السوفييت.

نعم كان الزمان قد اختلف. وأصبح للشعوب التي تكافح من أجل استقلالها وحقها في الحياة سند حقيقي، صديق نزيه يمد يد العون دون شروط، فقد انتصرت الاشتراكية وارتفع علمها في بداية القرن فوق الاتحاد السوفيتي وفي منتصفه فوق الصين وعدد كبير من بلدان أوروبا، وامتدت جسور للصداقة وأكثر من هذا طرق

للسلاح. لم تعد الشعوب فريسة وحيدة للفتك والنهب الاستعماري.

وأنشأت ثورة يوليو دولتها الوطنية المستقلة في مصر لتصبح قاعدة متقدمة للنضال ضد الاستعمار، ومن أجل انتصار حركة التحرر الوطني دربت المناضلين على أرضها، وفتحت اذاعاتها الموجهة لدعايتهم وكانت معبراً للسلاح وملاذا.

انتصرت الجزائر، وقدمت لهذا النصر مليونا ونصف مليون من الشهداء، ونصف مليون أرملة ونصف مليون يتيم، وقوى مدمرة واقتصاداً بائسا.

حين أغمض «مولود» عينيه مستسلماً للموت في نهاية «وقائع سنين النار» كان ابن الشهيد أحمد يبكي بحرارة بعد أن أصبح وحيداً، لكنه عرف الطريق إلى الثوار.. أما «مولود» فلم يكن قد شهد سوى البداية التي مات فرحاً بها ممتناً لزمنه ولربه ولوطنه بعد أن نال نصيبه من التعذيب والبؤس، ولم يكن بوسعه بعد أن يحكي لنا عما حل «بجبهة التحرير الوطني الجزائري» التي التحق بها الآلاف من كل المنابع والطبقات والتكوينات السياسية: «ذابت الجبهة أثناء القتال في جيش التحرير ولم يعد لها وجود كتنظيم شعبي حقيقي كما أننا لم نهتم بالتثقيف السياسي للأعضاء وجنود جيش التحرير إلا في حدود المعركة المباشرة ضد الاستعمار، ولم ننتبه للمرحلة الهامة التي ستتلو القتال، مرحلة البناء الاشتراكي».. كما يقول مسئول جزائري كبير، وكما يؤكد برنامج طرابلس الذي وضعه بعض قادة الجبهة عشية استلام السلطة:

«إن الفقر الايديولوجي لجبهة التحرير الوطني والعقلية الاقطاعية والنفسية البورجوازية الصغيرة - وهما من النتائج المباشرة لهذا الفقر الإيديولوجي - إن كل ذلك يوشك أن يؤدي بالدولة الجزائرية المقبلة إلى بيروقراطية تافهة ومعادية للشعب في واقع الأمر إن لم يكن في المبدأ نفسه» كما نقد الثوار أنفسهم.

كان ذلك تحذيراً لم يتسع الوقت «لمولود» حتى يطلقه لنا بجنونه الحكيم وربما لم يكن مولود ليقول كلاماً مرتباً كهذا، لكنه كان سيعرف حتما، بقدرته على الاستشعار الذي علمته له حياته الدائمة بين الكادحين، ان ثمة شيئاً غلطا. كان الحزب الذي ألقى عليه التاريخ عبء قيادة الشعب في معاركة ضد الاستعمار يتآكل ويعجز عن قيادة المرحلة الجديدة ويتعرض لما تعرضت له الأحزاب الكبيرة من قبل بسبب تكوينها غير المتجانس ونهجها المتميع وغياب النظرية المرشدة.

توقفت المصالية (حزب الشعب الجزائري) شيئاً فشيئاً عن أن تكون حزباً سياسياً لتصبح بفعل طرائقها حركة تآمر، تراجع الشرح والتحليل السياسي أمام الحيلة والإخفاء. أصبح الإخفاء عن المناضلين مبدأ، وراحت السرية تبرز كل شيء، ونفذت هذه الطرائق إلى مجمل الحزب وأصبحت سارية في العلاقات بين القادة. كانت المسائل الأساسية تسوى على مستوى اللجنة القيادية لكن هذا الجسم كان مجموعة من الزمر التي تجمع بينها روابط شخصية أكثر مما هي وحدة في وجهات النظر السياسية.

شهدت جبهة التحرير ما هو قريب الشبه بمؤامرات القصور، فصفى المناضلون بعضهم بعضا. وفي حمأة الخلاف المرير عشية الاستقلال جرت عملية واسعة لتصفية النقابات وتشتيت الحركة الطلابية.

«إن أعوام الحرب السبعة لم تسمح للجبهة بأن تكون لها قيادة متجانسة أو حزب مسلح عقائدياً أو جيش تحرير مزود بالفكر والثقافة الثورية ولم تتح الامكانيات لأي طليعة ثورية أن تتكون بشكل حاسم، وكانت الجماهير وحدها تتمنى العدالة الاجتماعية». كان ميرابو يقول: «أن بروسيا ليست دولة تمتلك جيشاً بل جيشاً له دولة» هذه هي حال الجزائر أيضاً عشية الاستقلال وبعده. ولأن الكفاح المسلح أفتقر إلى العمل السياسي المنظم، إلى وجود حزب حقيقي يقود الجماهير لتسلم البلاد من الفرنسيين شاعت عمليات النهب والسلب والاستيلاء على الممتلكات «وقتل الأخاوي» وكان ضباط بعض الولايات هم أول الناهبين. وباسم الإسلام شاع التزمت.. فجرى رجم النساء البائسات بتهمة الزنا.

«في فيتنام أنشأت الثورة المنتصرة المثخنة بالجراح معسكرات للفتيات الساقطات لاعادة تربيتهن وادماجهن في حياة المجتمع كقوى منتجة، وكان الجنود الأمريكيون قد حولوا سايجون إلى بيت كبير للدعارة، وورثت الثورة الآف النساء المحطمات». وبسبب غياب الحزب وانخفاض الوعي السياسي السكان بصحبة رجل دين في حمأة الغوغائية إلى أحد المسارح ليدمروا التماثيل وهم يطلقون صيحات «لا أوثان بعد اليوم» «فاقترن العداء للاستعمار بمعاداة الحضارة والتقدم».(*)

باختصار غابت الصورة المرجوة لمجتمع ما بعد النصر وأصبحت متروكة للعشوائية والمصادفة، الشيء الذي استثمرته طبقة جديدة أخذت تتملك بسرعة لترث الأرض وما عليها في غياب التنظيم الشعبي ووضوح الهدف.. وهو الشيء الذي كانت القيادة العمالية للثورة الفيتنامية قد أدركت مخاطره وأعدت له العدة، فكان الوضوح السياسي لدي مقاتليها مثله مثل السلاح حاسماً غير قابل للفصال.. وأخذت تنتقل بالبلاد إلى الاشتراكية التي عرفت قانونها وقواها جيدا. والآن وبعد ما يقرب من ربع قرن من استقلال الجزائر مازال السؤال مطروحاً: الوطن المستقل الجديد وطن من؟! لابد أن صبي «وقائع سنين النار» قد كبر الآن، وقد أصبحت ابتسامته العذبة مرة بعض الشيء، فالجزائر لم تنتقل إلى الاشتراكية ومازال الطريق إليها في وعورة جبال الأوراس.

(*) أثبتت التطورات اللاحقة التي ما زالت فصولها تتوالى في الجزائر أن غياب حزب جبهة التحرير عن الساحة وتحوله إلى جهاز بيروقراطي وانفراده بالحكم قد أفسح المجال لنمو هذه النزعة المحافظة باسم الدين التي تبلورت في شكل الجبهة الاسلامية للانقاذ التي تهدد مستقبل التطور الديمقراطي في الجزائر.

الآن وقد أصبحت السياسة شأناً من شئون الادارة كما هو الحال في تجارب بلدان العالم الثالث التي تعثرت ولم تصل بعد إلى الاشتراكية، وقالت أنها تخط طريقاً ثالثا. الآن.. أخذت مفارق الطرق تتضح أكثر. هناك طريقان لا ثالث لهما: الرأسمالية والاشتراكية. وكل نظام يقول بالطريق الثالث هذا أقرب إلى الاشتراكية أو الرأسمالية. ومن حسن حظ الجزائر وبدماء شهدائها مازالت الجزائر أقرب للاشتراكية، ولن يحسم الأمر سوى الشعب المنظم الذي اتضحت أمامه الرؤية والهدف، حينئذ سوف يختار الطريق.. الطريق المستقيم إلى الاشتراكية. فبوركت يا أيها الطريق المستقيم، وبوركت يا مولود الذي سيولد دائماً ابناً باراً للكادحين.



سلامٌ من صبا بردى أرق

سلاماً من صبا بردى أرق

حين اندفعت بنا السيارة من مطار «دمشق» إلى المدينة فوجئت بالدكتورة «لطيفة الزيات» تدندن: م الموسكي لسوق الحميدية، أنا عارفة السكة لوحديه. والسائق يبتسم لنا في المرآة.

كنا في طريقنا إلى الندوة الفكرية على هامش مهرجان دمشق المسرحي العاشر بدعوة من وزارة الثقافة. قلت للدكتورة لطيفة: رغم أن أحداً لم يسألنا عن رأينا في الوحدة - التي قامت بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨- فإنه كان ينبغي الدفاع عنها وحمايتها من السقوط، وربما لو تواصلت هذه لما آل الحال لما نحن فيه.

أخذت تتذكر الأغنية والمعنى الشعبي العميق فيها - فهي لم تر الشام منذ عام ٧٤، ولم أر أنا «الشام» منذ عام ١٩٧٧. واستغرقت كل منا في ذكرياتها عن السنين الطويلة الماضية بين رحلتين لبلد حبيب.. رحلتين للوطن.

وجدتني أراجع نفسي، ترى لو استمرت الوحدة، أي البلدين كان سوف يجذب الآخر إلى موقعه الآن؟! مصر تسحب سوريا معها إلى حظيرة كامب ديفيد والعلاقة الخاصة مع أمريكا، أم بالعكس تنجح سوريا في الحفاظ على مصر الوحدة بعيداً عن حظيرة الأعداء ولو إلى حين؟

فاجأتني الفنادق التي نبتت والشوارع الجديدة، والسيارات من كل صنف وهرولة وزحام حتى أنني لم انتبه اننا وصلنا إلى فندق الشام الذي عرفته جيداً عن طريق الإعلانات في إذاعة مونت كارلو.. ولم أنتبه لما في تصميمه العربي الرفيع من جمال خالص إلا حين قرأت كلمات الصديقة «نادية خوست»: «يشعرك البيت العربي بقامتك ويشعر الآخرين بها». إنه نمط الحياة الذي ينسج علاقة رقيقة مع الماء والخضرة، ولم يكن نمط الحياة ولا البيت العربي هو الذي فاض بحرارته خلال عشرة أيام انقضت مثل ليلة.

كان دفء الناس وحرارة القلب وفيض المشاعر الذي أنساني في البدء وفي الختام اسئلتي السياسية المهمومة، وظلت أغنيات فيروز وأشعار الصبا والمراهقة «دمشق.. يا دمشق يا» ظلت كل تنويعاتها تملأ قلبي. لن يكون بوسعك إلا أن تحب في سوريا كل شيء. كرهت أنا شيئاً واحدا: الاستغلال.. ذلك الذي يترجم نفسه في جنون الانفتاح وسيل البضائع وسفه الاستهلاك، واللامبالاة على الجانبين: جانب الشعب المنهك، وجانب كبار الملاك الغارقين في الترف - هربوا إلى الخارج ٥٤ مليار دولار- كرهت من كل قلبي المظاهر التي أعرف جيداً أنها خربت اقتصاد مصر ودفعت بوطني دفعاً لاحضان التبعية، ثم الجوع. كرهت ذلك بقوة، وشد انتباهي بعيداً عن الجمال الخالص للمدينة القديمة. قلت لكل من أحببتهم فيها: «لو استمر الحال هكذا فأنتم قادمون إلى كامب دافيد لا محالة». وكنت اختتم قولي برجاء حار ألا يأتوا أبداً إلى كامب دافيد.

ولم أخف من شيء (فالشام موطني)، ولا حتى ذلك البرد الصغير الذي انهال على شباكي ذات ليل فأيقظني، ولا تلك الرياح التي كادت أن تطير بي فوق جبل «قاسيون»، ولا الرجل الذي سقط ميتاً أمامي على سلم الفندق بينما يصدح المغني بموال فرح عظيم كان الميت ضيفاً عليه. لا شيء زرع الخوف منك في قلبي يا دمشق التي احببتها سوى هذا الطريق الذي ينفتح واسعاً لكي تنكفئ على وجهك في مستنقع «كامب دافيد». زرعت هذا الخوف في رائحة الفلوس الغريبة، رائحة الفساد النفطي الذي ينخر في جدار صمودك كالسوس فيزرع العفن. سوريا يجرها التجار إلى المستنقع. سوريا يهددها التجار أكثر مما يهددها الصهاينة والامبرياليون. سوريا يأكلها الجشع والتوحش.

فيه ناس وناس

يسخرون من يقظة المقاتلين وحلم الذين يتوقون لوحدة عربية حقيقية. أتذكر دموعي السخية ليلة الانفصال، وحلمي العاصف بأمة حرة اشتراكية، قادرة على أن تلعب دوراً في هذا العصر يليق بها. وها هم ذات التجار يحاصرون الشعب - بالجوع - ليركع ولتتساوى لديه الأشياء. لم أكن في حاجة لكي أحسب شيئاً أو أسأل كثيراً. هذه سوريا التي لم أعرفها. اتجول في شوارع دمشق، أسرق لنفسي الدقائق، أشاهد الطوابير على منافذ الخبز والمواد الغذائية، أسمع الشكوى من ارتفاع الأسعار، وانقطاع الكهرباء والماء، أتلمس حالة الانهاك التي يعيشها الناس الذين لم يسبق أن عاشوا مثل هذه الأزمة، أتذكر حكاية جدتي عن سكة السلامة وسكة الندامة.. يدفع الرأسماليون الجدد سوريا دفعاً إلى السكة الأخيرة: سكة اللي يروح ما يرجعش. والتجار أقوياء متسلطون شطار. كان الوطن في نظرهم وما يزال سوقاً ومكاناً للكسب ومزيداً منه.. لسان حالهم يقول طظ في مواجهة الاستعمار والصهيونية.. أنا ومن بعدي الطوفان.

وأتذكر أيضا كل ما قرأته عن نشاط التجار وكبار الرأسماليين في شيلي لاسقاط نظام «الليندي»، وكيف نسقوا خطاهم مع الشركات العالمية الكبرى، خطوة خطوة لتأزيم الوضع وإتاحة فرصة لجناح من جيش شيلي لينقض على الحكم ويضع البلاد على طريق جديد، ولتصبح شيلي بعد ذلك فريسة للاحتكارات العالمية وعملائها المحليين وقاعدة للامبريالية الأمريكية. فمن هو يا ترى الجناح الذي يعده كبار تجار الشام لينقض على الحكم في سوريا لتمر التسوية الأمريكية - الإسرائيلية دون متاعب؟ وكيف أن هؤلاء التجار قد فزعوا قبل ربع قرن حين أصدر جمال عبد الناصر سلسلة التأميمات الواسعة سنة ١٩٦١.

ومع ذلك فكل الشواهد تقول إنه عاجلاً أو اجلاً.. سوف يدخل الجيش السوري إلي المطهر.. إلى تجربة حرب قاسية ربما لن يختارها ضد الصهاينة، تدعمهم ترسانة أمريكية من العتاد، ومن الرجال إن لزم الأمر.. فضلاً عن ترسانة أخرى تعدها دول السوق الأوروبية المشتركة التي شهرت بسوريا على اعتبار أنها دولة تدعم الإرهاب وقامت بحصارها اقتصادياً وقطعت علاقاتها معها. ويعتمد الجيش السوري العربي على دعم سوفيتي بلا حدود سوف يعينه في حالة الاشتباك مع العدو في ظل نضج الصراع الداخلي من أجل السلطة والثروة، ليصبح حينئذ جيشاً جديداً، جيشاً غير تقليدي، وهو خيار يعرف المحاربون السوريون أن لا بديل عنه سوى الهزيمة، أما الهزيمة فقد جربوها عام ١٩٦٧ وتركت مرارتها وجراحها دون أن تندمل. وقد ثبت - بالتجربة لا في النظريات وحدها - أنه يستحيل على الجيوش التقليدية أن تخوض الحرب حتى النهاية ضد الاستيطان والاستعمار وتنتصر، وإنما تقوم بتحويل نفسها في خضم هذه الحرب - إن كانت تبتغي - النصر إلى جيوش جديدة تستند إلى عمق شعبي منظم ومسلح وتعيد بناء نفسها في العراك. هكذا كان الافق الذي تطلع إليه كل من جمال عبد الناصر وعبد المنعم رياض وقادة جيش مصر وهم يعيدون بناءه في خضم حرب الاستنزاف. وهكذا واصلوا الحرب وطوروها حتى كانت حرب أكتوبر المجيدة رغم حصادها السياسي الهزيل.

وهكذا انتصرت فيتنام التي يعرف الرأي العام السوري بطريقة حية وموحية درسها الكبير: درس حرب الجيش النظامي وعمقه الشعبي، كما يعرف الجيش السوري ذلك كله رغم مظاهر الفساد التي تسللت اليه عبر تجربة دخوله إلى لبنان دون اشتباك يومي مع العدو. ولن ينتهي الصراع ضد الصهاينة الا بهزيمتهم عسكرياً. هذا أيضا درس يعرفه الجميع، وسيبقى للحكم في سوريا شرف أنه من بين كافة دول المواجهة مع العدو الصهيوني مازال يقول لا، ومازال الانفاق العسكري من أجل خلق توازن استراتيجي مع العدو يستوعب ٦٠٪ من ميزانية البلاد ومازال جيش سوريا العربي شاهراً سلاحه في وجه العدو.

تنتهي الزيارة قبل أن تبدأ. أعرف عن سوء الأوضاع الاقتصادية أكثر مما تحتمل

روحي، ألمس بنفسي عذاب الجماهير الغفيرة، ويبهجني في الاحتشاد الكبير لجماهير المسرح ثقة متخيلة في مستقبل النضال.

حققت طويلاً في ملامح الفتى الذي فرملت سيارته لتقف عند قدمي بعنف استعراضي.. صحت في داخلي: لقد نجوت.

انتقل بين ملامحه وماركة السيارة - نسيت نظارتي فلا أرى جيداً - ينظر إلي بخجل ثم باستعلاء، وكأنما يستعيد مشهداً عليه أن يتقمصه ولا ينساه: يتيه فخراً بشطارته وبماركة السيارة وبأصله العلوي ربما. ينظر إليّ بعد أن كاد يصدمني كأنما يطلب أن اعتذر. هذه شيم «أولاد السلطة». إنها نفس الخصائص في كل العواصم: القاهرة، دمشق، الرياض، الخرطوم، الرباط وتونس، الجزائر، الكويت.. و.. و.. وحيثما تعيث الثروة العربية فساداً بدلاً من أن تنهض بالأمة. زهرة شباب الوطن الذين تلقوا العلم - إن كانوا تلقوه - في أكبر الجامعات مشغولون الآن بماركات السيارات الأكثر فخامة. أقسم لي أصدقاء أنهم يضعون لها خصيصاً مقابض من الذهب مثل أمراء النفط. وأمراء النفط لا يقفون إلا على خطوط المواجهة مع الحريم. كدت أسأله: يا أنت هل ستدافع عن الوطن حين تقع الواقعة؟

أفتح الراديو مصادفة.. أمل من فيض المدائح.. ولكنني أتلمس تلك النغمة الدعائية العالية المعادية حقاً للأمريكان والصهاينة. فهل يتسرب كل هذا في الرمال الناعمة دون أثر؟ وحين تقع الواقعة يدافع عن الوطن الشعب الكادح وحده، والذي يخوض حربه الخاصة من أجل لقمة العيش التي تصبح كل يوم معركة أشد هولا.

أنتظر الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء لتجيب يقظتهم على ما يعتمل في قلبي من قلق. أسأل أصدقائي كيف ستخرجون من المأزق؟ وهم يسألونني.. عندكم على تخوم المواجهة لابد أن يختلف السؤال.. «فدمشق» هي الحصن الأخير أمام التسوية الأمريكية، الحجر الأخير أمام تتويج المرحلة التي سيصبح الاجتياح فيها سيداً لزمن قد يطول. إنها العلامة الباقية من زمن التحرر حين كانت قياداته في الحكم فإلى متى تبقى؟.. فما لا يتطور يموت.

أسألهم: كيف سيدافع هؤلاء الشباب الفاسدون عن الوطن، ويرفعون راية أمة بكاملها في مواجهة العدو؟ كيف سيخرجون من المرسيدس الخنزيرة إلى الدبابة كيف؟ لا أحد يستطيع أن يجيب وكأنما يدفعون بالسؤال إلى زمن قادم، وربما يستبعد الكل احتمال نشوب الحرب كي يستريح.

وأعود إلى القاهرة بكل أسئلتي. في طريق العودة كنت قد ضيعت بسبب الارتباك موعد الطائرة ودون طلب مني أخذت إدارة مطار دمشق كلها تبحث معي عن حل، لا فحسب لأنني من ضيوف وزارة الثقافة حيث تحظى «الدكتورة نجاح العطار» وزيرتها وصديقتي باحترام كبير يجمع عليه أصدقاؤها وخصومها، ولكن أيضاً لأن

السوريين طيبون، ولأنهم بالسليقة «عروبيون». تصحبني مضيفة شابة حامل في شهورها الأخيرة وتأبى أن تستريح قبل أن نجد حلاً، ويقسم مدير المطار «جورج بركات» أنه لو لم تكن المحركات قد دارت فعلاً لانفتحت الطائرة من أجلي، ويصحبني لساعات طويلة في عالم المتنبي الغني فأخجل من فقري، واجتهد لاستعادة الشعر الذي ضيعته في السياسة.

حلقت الطائرة فوق سماء دمشق، وكانت الشمس تغرب عنها فتلوح جميلة مع مسحة حزن وادعة أجهدها النهار المليئ بالكدح. كان زهو خاص يملؤني لأن الجميع، جميع من قابلتهم بلا استثناء بدءا من «الرئيس حافظ الأسد» الذي تتدفق مشاعره العربية المعادية للصهيونية بحرارة، وانتهاء بحشد المتفرجين الذين اغرقوا العواطف والتحايا على الفنانين المصريين الشبان في عرض «عجبي» لأنهم أعادوا إلى الذاكرة القومية عبير المعارك الظافرة في السويس. الجميع بلا استثناء يعلقون آمالا كبارا على الحركة الوطنية المصرية.. ينتظرونها وهم على ثقة أنها سوف تنتصر في النهاية، يعرفون عنها تفاصيل التفاصيل، ويعتبون بحب، ويحاسبون بكل قسوة على كل هفوة صغيرة أو انحراف يسير.

وفي قلب الحركة الوطنية يتألق حزبنا حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي والحلف اليساري الواسع. وأمام فيض المشاعر وضخامة الآمال شعرت بالخوف - رغم الزهو - الخوف من ضخامة المهمات التي علينا أن ننجزها. إنها مهمات فوق طاقة أي حزب وحده أو حتى مجموعة من الأحزاب المتعاونة فيما بينها. إنها مهمة جبهة عريضة لكل الشعب تسقط مثلث التبعية والطفيلية والفساد، وتقضي على انفراد حزبهم بالسلطة والثروة.

كنت أقول لنفسي كلمات مشابهة لدي عودتي من تونس عام ١٩٨٢ كان الجميع في انتظار مصر أيضا كأنما يسمعون دقات قلبها الشعبي، ينصتون لوقع خطاها البطيئة الحذرة، خطاها.. إلى الامام وهي تعيد اكتشاف عروبتها في المحنة. علينا مهمات كثيرة.. وخطأ واحد صغر أم كبر يمكن أن يدمر أشياء ثمينة، أقول لنفسي. تراجع الزهو قبل أن تحط الطائرة في مطار عمان ليسلمني إلى تأمل طويل في حالتنا.

وتصبح دمشق التي ابتعدت جميلة وقريبة بما هو أكبر من طاقة روحي. فسلاماً يا دمشق. سلاماً من صبا بردي أرق.. إن زمن الدموع قد انتهى، سلاماً أيتها العاصمة العربية التي لون عشقها طفولتي وصباي.. وبقيت رغم كل شيء رمزاً حياً للعروبة.. سلاماً على المدينة القديمة التي تقاتل بتراثها وناسها وتاريخها وحشية الاحتكار والمطامع الخفية للصهاينة والأمريكيين الذين يبتغون تطويقها والاستيلاء عليها، بدءا من تغيير سياستها وانتهاء بزرع العمارات الطويلة القبيحة فوقها، وطمس معالمها العربية ليقال: ذات يوم كانت هنا مدينة عربية وعمارة عربية، ثم تنسى الأجيال

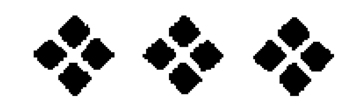
الجديدة كل ما كان بعد أن يختنق التراث والأنفاس في قبضة المال الذي لا ملة له ولا ضمير.. لا وطن له ولا قضية.

سلاماً يا دمشق، فأنا أعرف يقينا أنك بطريقة ما سوف تكونين صعبة المراس مستعصية على التطويع والاذلال. سلاما أيتها المدينة التي أحببت فيها كل من التقيتهم، أصدقائي القدامى وقد جددنا كل العهود رغم الأحزان العميقة وبسببها، وتواعدنا مرة أخرى، وأصدقائي الجدد الذين وقعت في هواهم بعد غيبة امتدت لعقد من الزمان، فكان الغياب مؤلما، وبسبب الألم انفتح القلب عن آخره لكل ما تمنحه المدينة العربية الباسلة من صداقة وحرارة مجانية تغدقها حباً عميقاً على كل ما هو شريف وحي في مصر العربية.. على كل ما هو مقاوم وجميل في وطني..

أسأل نفسي من أي الأشياء ضفرت هذا اليقين واسترحت له؟ وحين أغوص عميقاً أعرف أنه الفزع من اختلال الميزان لو سقطت سوريا. ذلك الاختلال هو ما يفزعني حقاً فأنكر على نفسي حق الحساب البارد لموازين القوى.. ثم لا مفر من أن أتلمس بمحاولة موضوعية باردة قوة الأحزاب والمنظمات الوطنية والتقدمية التي تدرك هذه الحقيقة بجلاء، واعرف أنها تدركها. وتلوح قوة الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين والمثقفين الوطنيين ماثلة بدورها في حمأة الصراع الطبقي الضاري الذي يتستر بشتى الأقنعة ويسلك مسارات جانبية لا تحصى.. دون أن يغيب عن أحد ذلك التهديد الخارجي الذي قال عنه مراسل «لوموند»: إنه سوف ينحسر فقط لو غيرت سوريا سياساتها وتحالفاتها. ويجرى الصراع العنيف لكي تغير سوريا سياساتها وتحالفاتها، لكي تذهب طائعة ذليلة إلى كامب دافيد وينتهي الأمر. وسوريا تقاوم.. رغم كل شيء. فسلاماً من صبا بردي أرق.. سلاماً يا دمشق.

---

١٧ ديسمبر ١٩٨٦



حرب محتومة

حرب محتومة

كان آخر العروض السينمائية السورية التي رأيتها «الحياة اليومية في قرية سورية» وهو فيلم تسجيلي «لسعد الله ونوس وعمر الاميرلاي» انتجته قبل عشر سنوات مؤسسة السينما السورية، وأغضب المسئولين كثيراً حينئذ لأنه كان يقول ببساطة إن التغيير الذي حدث في الريف السوري ليس إلا شيئاً هامشياً ضئيلاً وغير محسوس حيث بقيت أشكال الاستغلال والحياة كما هي. كان من السهل جداً في ذلك الوقت أن يتساءل المرء: هل صحيح قامت في سوريا ثورة؟ وهل صحيح أن قيادة حزب البعث هي قيادة اشتراكية كما تقول عن نفسها؟ وكما هو الاسم المعلن للحزب «حزب البعث العربي الاشتراكي» ذلك الحزب الذي يحكم سوريا منفرداً منذ ربع قرن أي بعد وقوع الانفصال وسقوط الوحدة المصرية السورية في زمن عبد الناصر، وعبر سلسلة من الانقلابات والانقلابات المضادة انتهت بنجاح الرئيس حافظ الأسد في الاطاحة بخصومة عام ١٩٧٠ ليحكم سوريا ستة عشر عاما متصلة.. تحت نفس الشعار.

كانت سوريا في ذلك الحين - سنة ١٩٧٧ ترفع كما ترفع الآن شعارات اشتراكية براقة وما كان أبعدها عن الواقع، إذ كان الحكم قد ابتعد عن الاشتراكية في ذلك الحين كثيراً، فإن الشعار لابد أن يثير السخرية الآن لأن حالة جديدة من الفقر والتردي في مستوى حياة الكادحين باتت تفوق الوصف. هناك جياع في سوريا لأول مرة «كما قال لي عامل في فندق الشام الجديد».

ومع تفاقم هذه الحالة الجديدة بات من الصعب على أجهزة الأمن المتعددة والمتضخمة أن تحكم قبضتها كما في السابق على الناس، ونشأت حالة جديدة لا يخطئها الزائر.. إذ يتذمر البعض بحرية. يشكو الناس حالهم ويعبرون عن سخطهم بصوت عال ودون أن يأبهوا للحقيقة أو النكتة التي يرددونها ساخرين: «إن من بين كل ثلاثة سوريين يوجد رجل أمن واحد.. وذلك على الأقل».

أما الصورة الخارجية لدمشق العاصمة فهي مضللة لا يمكن بحال أن تفصح عن هذه الحقيقة للوهلة الأولى للزائر الذي غاب عنها كل هذه السنين مثلما غبت. فقد اتسعت المدينة حتى أنني لم أعرفها، وأعلن الفندق في مدخله أن لديه كل التسهيلات لرجال الأعمال: تلكس، وناد وخلافه. وزادت المجمعات السكنية الضخمة للطبقة الوسطى وأخذ أبناؤها يدورون في ساقية توفير الآلاف المؤلفة من الليرات لشراء المساكن بعد أن كف الملاك عن تأجير الشقق كما هو الحال في مصر لأن قانون الايجارات لم يعد واقعياً. وارتفع ثمن الأرض بصورة خيالية بعد أن أصبحت المضاربة عليها نتيجة للأزمة شيئاً عادياً، وكون المضاربون مليارات الليرات على حساب طالبي السكن. أما أحياء الملاك الكبار وقصورهم فيمكنك أن تتحدث عنها بلا حرج. عرفت دمشق للمرة الأولى حنفيات مياه مطلية بالذهب والزجاج المعشق من أوربا... و... و. تدفقت أموال البترول على سوريا في زمن الوفرة النفطية، وكان الفساد وكانت كل أشكال التحايل التي عرفتها مصر تفصيلاً لضرب القطاع العام ومحاصرته وإدخال الاحتكارات الأجنبية إلى البلاد، مع أوهام قوية مصاحبة عن إمكانية تحييد أمريكا في الصراع العربي - الإسرائيلي.

بنات الشواربي

وتماما مثلما يحدث في شارع الشواربي الذي تتكدس فيه البضائع الأجنبية في القاهرة بوسعك أن تجد في الأسواق الفاخرة آخر خطوط الموضة الأوروبية والأمريكية التي تغزو الأسواق مع أشكال الاستهلاك السفيه ونمط الحياة الجديدة على الطريقة السورية. المطاعم مكتظة بالرواد رغم أن الحد الأدنى للاجور ٨٠٠ ليرة سورية أي ما يساوي ٣٥ دولارا لا يكاد يفي بثمن وجبة فاخرة في الفنادق والمطاعم الجديدة.

في البوتيكات تبتسم فتيات الشام، بائعات انحدرن من الطبقة الوسطى التي اندفع بعض أبنائها إلى العلا ليصبحوا مليونيرات سواء عن طريق الطائفة العلوية أو عن طريق الاستفادة من الحرب اللبنانية، فالضابط الذي لا يستشهد في الحرب يمكن أن يكون ثروة إذا أراد عن طريق تهريب البضائع من لبنان أو عن طريق ضربات الحظ في التجارة والسمسرة وتوكيلات الشركات الأجنبية التي دخلت إلى البلاد بغزارة. أما الموظفون الذين بلا وساطة ولا أصل علوي ولا ظهر في السلطة فهم ينحدرون في مستوى حياتهم إلى مصاف أفقر الفقراء وينهمكون جميعاً في البحث عن فرص عمل في الخارج أو عمل اضافي في البلاد.

والحاصل.. أخذت الملامح الثقافية للفئات الوسطى تتغير وانغمست غالبيتها العظمى في اللامبالاة واكتسبت نتيجة ظروفها هذا الطابع «العالمي السطحي» في

خطوط الموضة حتى الزي والماكياج وفي الاستماع للاغنيات الأجنبية التي تتدفق على البلاد، وفي عادات الطعام والشراب في الاحتفالات التي تفوق ألف ليلة وفي فقدان الإيمان بأي شيء سوى الربح والمتعة.

ثروة «عثمان» السوري

وتنشر الصحف الفرنسية صورة لرأسمالي سوري كبير يدعى «عثمان العائدي» كواحد من الذين ناشدتهم حكومة شيراك اليمينية الجديدة استثمار أموالهم فيها بعد أن قدمت عربوناً كبيراً لحسن النوايا باعادة المؤسسات المؤممة في زمن حكم اليسار إلى الملكية الخاصة حتى يطمئن المليونير السوري على الأموال التي هربها من بلاده.

فكيف كون عثمان العائدي هذا ثروته؟ من أعمال الوكالة والسمسرة التي قام بها في سوريا لصالح الشركات الفرنسية وغيرها وهو مازال وكيلاً لهذه الشركات في بلاده بعد أن أصبح من كبار أصحاب الملايين ويعمل في ميدان السياحة، وقد استفاد طيلة السنوات العشر الماضية من الاعفاءات الضريبية ومن قانون الاستيراد بدون تحويل عملة، وايداع عملة أجنبية في البنوك دون السؤال عن مصدرها، الخ، وهو مجرد نموذج يدل على طبيعة النشاط الذي يمارسه الاثرياء الجدد.

ووراء اللافتة الخارجية البراقة بوسع الزائر أن يضع يده بسهولة على طبيعة الأزمة التي تسميها الحكومات «صعوبات» رغم أن كبار المسئولين لا يخفون انزعاجهم العميق. وتتمثل باختصار في أن سوريا إذا ما بسطنا الخريطة الاقتصادية: تستهلك أكثر مما تنتج. تستورد أكثر مما تصدر. تنفق أكثر مما تملك. فتتزيد القروض والفوائد وتشح العملة الصعبة. وطبيعي أن تواجه البلاد أزمة. وقد قال لنا الرئيس حافظ الأسد إن الطفيليين يستثمرونها ولكن الحكم يقاوم. وتقول الدراسات الاقتصادية التي أقرتها مؤتمرات عديدة للأحزاب بما فيها حزب البعث والنقابات أيضاً: «إن كثيراً من المشاريع الانمائية تعثرت لعدم وجود العملة الصعبة اللازمة لاستيراد الآلات والتجهيزات، وتوقفت مصانع كثيرة نتيجة عدم وجود مواد خام، وأصبحت ظاهرة عادية أن يتقاضى عمال أجورهم دون عمل وأن تتدخل النقابات لأن بعض الوحدات خفضت أجور العمال حيث لا انتاج». لقد أسفر طريق التطور اللارأسمالي عن رأسمالية قبيحة مشوهة.

وخلاصة الأمر: «إن المسار الاقتصادي والاجتماعي لسوريا حتى الآن رغم ايجابياته في جوانب عديدة سواء على مستوى التغيرات التي طرأت على علاقات الانتاج أو القوى المنتجة فإنه لم يخرج البلاد من دائرة التخلف والتبعية، ولم يضعها على طريق التقدم الاجتماعي. فالإصلاح الزراعي الذي وجه ضربة قوية للإقطاع لم

ينفذ بصورة جذرية ليقطع الطريق على تطور الرأسمالية في الريف، وليحدث نهوضاً شاملاً في الزراعة بل بقي تأثيره محدوداً، ونشأت ظروف جديدة ملائمة لانتشار العلاقات الرأسمالية في الزراعة، وتهيأت فرص مناسبة للقوى الاستغلالية الجديدة في الريف لاقتطاع أكبر حصة ممكنة لها من فائض الزراعة، على قاعدة استثمار جهود وعرق العمال الزراعيين وتهديد ألوف الاستثمارات الزراعية الفلاحية الصغيرة بالانهيار». هذه خلاصة عامة، أما في التفاصيل فيقول الناس لبعضهم البعض: «كل ما تجده الآن فربما لن تجد ما تأكله غداً».

حين ذهبنا لنشتري الفستق الحلبي الشهير لم نجده في السوق. ووعدنا البائع وهو في غاية التذمر أن نجده في الصباح، ولكن بأسعار خرافية. ولم تكن المشكلة في الفستق وحده، اختفت من الدكاكين الحلويات الشامية الشهيرة، وفي البنك تختفي مظاهر الحياة والنشاط، رغم أن الحكومة أخذت تقرب تدريجياً بين سعر الليرة في السوق السوداء (الدولار ٢٣ ليرة) وسعرها في البنوك (الدولار ٢١ ليرة).. مما يدل على أن النشاط في السوق السوداء يجرى على قدم وساق.

وتتفشى الأمراض النفسية بصورة ملفتة للنظر، ومن ليس مريضاً يسقط في اللامبالاة حيث يجرى إنهاك الناس في البحث عن البضائع إن كان معهم فلوس وإنهاك الآخرين في البحث عن عمل اضافي بعد أن أصبح الحد الأدنى لا يفي بالحاجات الضرورية في ظل الارتفاع المخيف للأسعار.

في حضن الحكومة

وتسعى الحكومة للمواجهة مع التجار والسماسرة الذين استقروا في حضنها!! ويحكون في سوريا حكاية لها دلالة واضحة: توجهت وزارة الصحة السورية بطلب عاجل لتحصل على أدوية من «ألمانيا الديمقراطية» بعد أن شحت الادوية في الأسواق بصورة تنذر بالخطر، وتردد أن برلين طلبت تقاضي الثمن بالدولارات، اعتذر السوريون بأن رصيدهم من العملة الصعبة لا يمكن أن يوفر هذا المبلغ دفعة واحدة، فرد الألمان قائلين: في الأسبوع الماضي فقط دفعت الخزينة السورية ٥٠ مليون دولار مقابل صفقة سيارات مرسيدس اشترتها من المانيا الغربية!

كانت الحكومات قد بادرت بسبب الارتفاع في أسعار السيارات إلى إصدار قانون يحرم استيراد السيارات إلا عن طريق مؤسسة قطاع عام.. ورأيت في الشوارع التي تجري فيها سيارات فاخرة بسرعة الطائرات نموذجاً حياً للكيفية التي يتحول بها جهاز الدولة نفسه إلى معقل للفساد، ومصدر تفريخ له. فهل سوف تحارب الدولة نفسها؟

ومن جهة أخرى تشتد ضغوط الحركة الجماهيرية التى أفصحت عن وجود

محسوس من أجل أن تتم المواجهة لا بالطرق الإدارية البوليسية كما هي عادة الحكم وإنما عن طريق الجماهير التي تطالب برفع القيود الخانقة عنها وهي كثيرة. وللقيود قصة أخرى.

القبضة الحديدية

يحكم حزب البعث سوريا بقبضة حديدية أمنية سافرة تصادر الحريات السياسية والعامة حيث تعد سوريا من أكثر البلاد في العالم الثالث انتهاكاً للحريات وتأتي في مقدمة البلدان التي طالما طالبتها المنظمات الدولية بالافراج عن المعتقلين السياسيين حيث التعذيب في السجون والاعتقال دون محاكمة، والحجة والمبرر.. حماية النظام! ويقف الإخوان المسلمون في مقدمة القوى السياسية التي حملت السلاح ضد النظام.

في الشهور الأخيرة وأثناء زيارتنا كان صوت الجماعة خافتاً للغاية وقد انهكها الصراع بعد سلسلة طويلة من عمليات الاغتيالات التي قامت بها ضد القادة العلويين ورجال الأمن والمهنيين اللامعين مثل مدير جامعة دمشق والخبراء العسكريين السوفييت. وكان الإخوان المسلمون في جولة واحدة من جولات العنف المسلح ضد النظام قد نجحوا في قتل ٨٣ من القادة العسكريين وهاجموا المباني الحكومية ومراكز الشرطة. وأخذت عملياتهم تلك تتصاعد إلى حد دفع بالحكم لإصدار قانون يفرض عقوبة الإعدام على كل من ينضم للاخوان المسلمين إلى أن كانت مذبحة حماه التي راح ضحيتها ستة آلاف مواطن سنة ١٩٨٢ والتي مازالت سوريا تعاني من آثارها الوحشية حتى الآن رعباً.. ولامبالاة.

وتدلنا ثلاث فقرات من البرنامج الذي أعلنته الجبهة الإسلامية سنة ١٩٨٠ لإسقاط نظام الأسد على طبيعة الخلفية الاجتماعية للجبهة ومتطلباتها وجوهر موقفها الرجعي:

(١) تأييد ملكية المزارعين الكاملة للأراضي واستبعاد الوسطاء والدولة من القطاع الزراعي.

(٢) نقل ملكية الصناعات العامة من الدولة إلى العمال الذين تجب مكافأتهم بطريقة مناسبة وليس ببذخ. (ملحوظة: هذا احتجاج ضمني من قبل الجماعة على ما تراه حقوقاً زائدة للعمال).

(٣) معارضة دور الدولة في التجارة والمطالبة بحرية القطاع الخاص في الاتجار بالمنتجات وتشجيع الحرفيين.

ويستخلص من بحث أجراه فريق عمل من الباحثين الأمريكيين النتيجة التالية: إن الإخوان المسلمين هم «جماعات فقدت نفوذها الاقتصادي والسياسي بسبب

سياسات النظام. ويضيف: إن التاجر البورجوازي (الغالبية العظمى من كبار التجار ينتمون إلى السنّة) لم يكن راضياً عن تأميم الصناعة والتجارة الخارجية، وقد زاد من تأثير ذلك سياسات النظام الاشتراكي بشأن إقامة التعاونيات الزراعية الاستهلاكية مما أضر بالمصالح الاقتصادية الاجتماعية للسنة من طبقات أصحاب الأراضي والتجار وأصحاب المصانع.

إن الصراع بين الحكم والاخوان المسلمين رغم ظاهره الطائفي (علوي - سني) إلا أنه في العمق صراع اجتماعي سياسي، بين المدافعين عن «قدسية الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، والحالة الجديدة التي انشأها حزب البعث، والتي أصبحت ملكية الدولة بمقتضاها، هي الأساس». ولذا طرقت جماعات الإخوان المسلمين سبل كل تحالف ممكن لاسقاط النظام في سوريا.

وعلى الرغم من نشأة الجماعة في عداء مباشر مع الاستعمار الفرنسي واصطفافها حينئذ مع القوى الوطنية في مواجهته، فإن صراعها المذهبي السني مع الحكم العلوي ذي الواجهة العلمانية، وصراعها الاجتماعي الضاري والمبدئي ضد أي تغيير يحدثه هذا الحكم في طبيعة الملكية الخاصة، وهي ترفض أي تأميم، ورفضها العنيف لتحالفه مع السوفييت، جعلها تصطف الآن مع الأمريكيين والصهاينة وعتاة الرجعيين العرب إلى حد التنسيق مع الأمريكيين لإسقاط النظام عن طريق ما أسموه بالجبهة الإسلامية عام ١٩٨٢.

وفي لقاء مع الرئيس حافظ الأسد قال لنا إنه «مع ذلك لا يضع كل الجماعات الإسلامية في سلة واحدة، ولكن ما من مرة قاموا بعمل عنيف ضد النظام، إلا وكان السبب هو إصلاح زراعي أو تأميم». الملفت للنظر أن توقيت اعلان الجبهة الاسلامية تلك جاء متواكباً مع الغزو الإسرائيلي للبنان. ونشرت الصحف الأمريكية في ذلك الحين عن لقاءات مطولة لعدنان سعد الدين، أحد القادة البارزين للإخوان المسلمين، مع شخصيات أمريكية رسمية كبيرة في عمان في إطار السعي لتشكيل هذه الجبهة ووضع مخططاتها. ولكن وبعد جولات كثيرة.. كانت مفاسد الحكم وطبيعته القمعية والمسار الذي اتخذه التطور الاقتصادي للبلاد فرصة لنشوء طبقة مالكة جديدة تفسد حجج الإخوان المسلمين في الدفاع عن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج إذ وجدت هذه الطبقة الجديدة في نهبها للدولة واستنادها إليها سنداً أقوى وأضمن من الإخوان المسلمين. فانحسر القناع السني العلوي للصراع ليسفر عن حقيقته الطبقية وأصبحت الدعاية المذهبية عن حق السنة في الحكم، مادام الحكم بصفته تلك هو المفتاح السحري لثراء بلا حدود.

وكان جناح من جماعة الاخوان المسلمين يعتقد في بداية الثمانينات «أن النضال المسلح الجيد التنظيم كفيل بالإطاحة بنظام الأسد، ومع ذلك لم تنجح جهود هذه الجماعة المبكرة في كسب تأييد جماهيري بالنظر إلى تقارب الرئيس الأسد مع مصر والأردن

والسعودية وسياسته الاقتصادية الليبرالية، هذه السياسات التي لقيت دعماً من ثروات النفط العربي من الخليج وساهمت مساهمة مباشرة في إثراء بعض العناصر الاجتماعية التي كانت تميل إلى تأييد الإخوان المسلمين». كما يقول الباحثون الأمريكيون. وبذلك يخفت صوت المعارضة اليمينية الرئيسية التي طالما شكلت خطراً على استقرار النظام.

المعارضة اليسارية

وإلى اليسار تقف في المعارضة مجموعة المنشقين عن الحزب الشيوعي منذ السبعينات بزعامة «رياض ترك» الموجود في السجن، وحزب العمل الشيوعي الذي تعرض لحملة ضارية نددت بها منظمات حقوق الانسان، والاتحاد الاشتراكي العربي «جمال الأتاسي» وجناح من الناصريين. وتنطلق جميعاً من قضية الديمقراطية على تفاوت مقولاتها وهي تجيد التحليل السياسي دون عمل حقيقي في الشارع ولا تشكل خطراً على النظام مثلما كانت تفعل جماعة الإخوان المسلمين.

أما بقية الأحزاب السورية فقد دخلت في جبهة مع حزب البعث الحاكم وفي مقدمتها الحزب الشيوعي السوري الذي يواجه انقساماً جديداً في صفوفه ومعه الوحدويون الاشتراكيون وحركة الاشتراكيين العرب والحزب الوحدوي الاشتراكي.

وتبرر الأحزاب تعاونها مع الحكم بموقفه الوطني المعادي للامبريالية الأمريكية وإسرائيل وهو موقف ثابت وأصيل حتى الآن.. حيث تقف سوريا وحيدة من بين دول المواجهة مع العدو الصهيوني في رفضها للدخول في مشروع كامب ديفيد وتنفق ما يساوي ٦٠٪ من ميزانيتها على التسليح.

المواجهة مع إسرائيل

وتتسابق سوريا وإسرائيل في ميدان التسليح، وتدرك إسرائيل أن سوريا هي الجبهة الوحيدة الباقية بعد كامب دافيد فتركز جيوشها في اتجاهها. وفي خطاب له في فبراير الماضي أعلن الرئيس حافظ الأسد أن «سوريا تهدف إلى تحقيق توازن عسكري استراتيجي مع إسرائيل لا في ميدان التسليح فحسب وإنما في ميادين أخرى مثل التعليم وتوسيع القاعدة الصناعية وتطويرها ومازال أمام سوريا شوط طويل لتقطعه حتى تنجز هذه المهمة. وبالطبع فان الوضع الاقتصادي يشكل عقبة كبيرة في طريق انجازها».

وهذا القول من سوريا يدفع قادة اسرائيل إلى تأكيد أن الحرب مع سوريا باتت شيئاً لا يمكن تجنبه، وسوف تنشب هذه الحرب حتماً خلال عامين أو ثلاثة كما يقول

الجنرال بليد قائد المنطقة الشمالية الإسرائيلية في تصريح أخير للهيرالد تريبيون الأمريكية. وهي حتمية يقر بها السوريون جميعاً باختلاف مواقعهم وانتماءاتهم خاصة بعد أن أسفرت أوروبا الغربية وأمريكا عن عداء حقيقي لسوريا في أعقاب محاكمة نزار هنداوي* وادانته وطرد السفير السوري من لندن. تقول النيوزويك الأمريكية «الجميع ينتظر الآن فرصة مواتية لعقاب سوريا على مجمل سياساتها». فما هي احتمالات تطور الأوضاع في هذا الاتجاه؟

يعلن النظام أنه مستعد للمواجهة وسوف يحارب لو فرضت عليه الحرب وهو آخذ في الاستعداد.

ويرى الشيوعيون «خالد بكداش» أن الخطر مازال قائماً وقد يتخذ العدوان شكل حرب شاملة تشنها اسرائيل مدعومة من الامبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية أو تأخذ شكل قصف عشوائي كما جرى مع الشقيقة ليبيا ضد منشآتنا الاقتصادية والدفاعية وحتى ضد منشآتنا المدنية وتجمعاتنا السكانية في المدن والأرياف.

ولكن المأساة هي أن الحرب بعيدة ولابد أن يتذكر المرء القاهرة في ظل حرب الاستنزاف حين كان المحاربون يسخرون من الجبهة الداخلية ومن لا مبالاة العاصمة بوصفها القاهرة الشقيقة، نفس الشيء يمكن أن يقال عن دمشق.. رغم أنها لا تبعد عن الجبهة إلا بمقدار ما تبعد القاهرة عن السويس.

وتتعرض السياسة السورية المعادية للصهيونية والامبريالية لشد وجذب مستمرين في اتجاه التهاون حيناً أو الثبات حيناً آخر، وتزداد هذه العمليات قوة بمدى نفوذ الاحتكارات العالمية، وتتخذ طابعا شخصياً تسعى لتسمية خليفة للرئيس الأسد في حال غيابه لأي سبب، إذ يندرج النظام السوري في اطار الأنظمة الوطنية المعادية للاستعمار والصهيونية التي يحكمها رئيس قوي - يحظى بسمعة شخصية طيبة - لا يتغير عادة الا بالموت أو القتل، وتتعلق كل الاختيارات في خاتمة المطاف بشخصه الذي يمسك كل الخيوط وتتكون له مراكز ثقل في مؤسسات الأمن القومي والجيش اساساً.. وتتضخم هذه المؤسسات تضخماً زائداً عن الحد والحاجة فتلغى بالتدريج كل مؤسسات الحكم الاخرى وتدفعها بعيداً عن سلطة اتخاذ القرار الذي يُملي عليها لتصبح هامشية فاقدة للتأثير.

وهنا تتجلى محنة تلك الأشكال من الجبهة الوطنية التي تدخل إليها طائعة كل القوى السياسية في سوريا وترتضي لا فحسب القيادة المطلقة للحزب الحاكم بل ترتضي بالتدريج فقدان دور خاص بها، فالجبهة تكبلها بدلاً من أن تطلق امكانياتها

(*) «نزار هنداوي» مواطن سوري كان يعيش في لندن إتهم سنة ١٩٨٦ بوضع قنبلة في حقيبة صديقة له كانت مسافرة على طائرة عال إسرائيلية. ولكن القنبلة لم تنفجر، وفي هذا العام شنت حملة واسعة ضد سوريا باعتبارها دولة راعية للإرهاب وقطعت انجلترا علاقاتها معها.

وشعار التعاون يجعلها عاجزة أولاً عن التميز وابراز استقلالها وثانياً عن ممارسة الصراع مع الحليف الحاكم القوي، صراع حتى من موقع الحلف لا من موقع العداء، وتمارس الأحزاب التي دخلت الجبهة في سوريا هذا الصراع بالكاد وشكلياً في الغالب وعلى الورق في مطبوعات إما محظورة أو محدودة الانتشار ولا تفتح لها أجهزة الإعلام الجبارة أبوابها إلا من أجل اعلان التأييد المطلق والولاء الكامل للحكم.

وتجد هذه القوى نفسها بما فيها يسار البعث عاجزة عن مقاومة التردي المتزايد في أوضاع البلاد وعاجزة في الوقت نفسه عن الخروج من الجبهة لأن خروجها سوف يساعد عملياً وموضوعياً على ضرب كل ما تبقى من توجهات اجتماعية في صالح الكادحين لدى النظام، فضلا عن أن موقفه الوطني المعادي للاستعمار والصهيونية سوف يتعرض لمزيد من ضغوط القوى الأشد رجعية فى دوائر المال أو السياسة أو الجيش الذي يحرم على القوى المشاركة في الجبهة أي عمل سياسي فيه بنص ميثاقها.

فماذا عن المستقبل؟ سوف تكون سوريا عرضة لهبات اجتماعية، نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية والاعيب الاحتكارات الدولية وخطط التجار وهي قوى تسعى متكاتفة لإرغام سوريا على تغيير سياساتها. وسوف يبقى الموقف الوطني المتشدد في عدائه للاستعمار الأمريكي والصهيونية وقاعدتها إسرائيل معلقاً على شعرة مستنداً بقوة متزايدة إلى الدعم الاشتراكي عامة والسوفييتي خاصة وبشكل أخص في الميدان العسكري، وسوف تظل هذه الشعرة مهددة بالسقوط إذا لم يحدث تغيير جذري تتفق عليه كل القوى الوطنية والتقدمية في الحكم وخارجه. تغيير في اتجاهين:

- اصلاحات اقتصادية - اجتماعية تلبي مطالب الجماهير الكادحة وتضرب معاقل الرأسمالية الكبيرة والطفيلية.

- انفراج ديمقراطي يشرك هذه الجماهير لا فحسب في الدفاع عن الوطن المهدد وإنما في مراقبة ما يجرى من تغيير وحمايته.

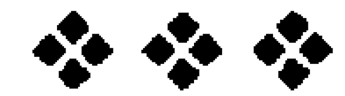
وهي تغييرات تجمع على ضرورتها كل القوى الوطنية بكافة أشكال تنظيمها بما فيها الغالبية العظمى من قواعد حزب البعث الحاكم. وإلا فسوف تكون العواقب وخيمة وسوف تحدث تداعيات داخلية في صلب أجهزة النظام حتى أجهزة القمع ذاتها التي يستند إليها إذ يشكو جنودها وضباطها المتوسطون من شظف العيش جهاراً نهاراً.

هذا الوضع المنذر بالخطر يفتح الباب أمام احتمالات الهزيمة العسكرية مجدداً أمام العدو الصهيوني، وهي الحصاد المر لغياب الديمقراطية وإبعاد الجماهير قسراً عن مراكز السلطة التي تنازعتها الطائفة والعسكريون والأثرياء الجدد فهيمنت الطفيلية والبيروقراطية بارتباطاتها مع المراكز الامبريالية وفتحت الباب واسعاً للتنازلات السياسية التي لابد أن تكون تتويجاً لهذه الأوضاع، وعجزت المقاومة حتى الآن في داخل الحكم وخارجه عن وقف الاندفاع في اتجاه اختيار رأسمالي صارخ القسمات لا

يبدو أن هناك رجعة عنه. وهو اختيار تتضح سماته في معظم البلدان العربية. وهكذا تصبح صورة الحياة اليومية في قرية سورية هي صورة الحياة اليومية في قرية عربية.

---

٣١ ديسمبر ١٩٨٦



على باب اليمن السعيد

على باب اليمن السعيد

أخذت «كلودى فايان» تبكي فرحاً وبصوت مسموع حين هلت علينا في طوابير العرض الشبابي طلائع فتيات اليمن من كافة مراحل التعليم. قالوا عنهن خمسمائة زهرة سبتمبرية كن يرقصن على إيقاع موسيقى جميلة. وأدهشني أن معظم النساء الحاضرات في العرض كن يعرفن هذه الطبيبة الفرنسية التقدمية التي جاءت إلى اليمن سنة ١٩٥٠ وكانت البلاد حينها تغط في نوم القرون الوسطى في ظل الإمامة وكتبت عنها كتاباً يفيض بالعطف وبالمشاعر «كنت طبيبة فى اليمن». ثم جاءت لتشارك في احتفالات البلاد بالعيد الفضي لثورة سبتمبر المجيدة. وقد تجاوزت الستين، مدعوة هذه المرة من النظام الجمهوري.

ومثل «كلودي فايان» كنت أود أن أبكي، لولا ما فرضته على روحي من قيود، وقد اختلطت مشاعري بين لوم النفس لأنني تصورت اليمن غير الذي رأيته، ولأنني تأخرت جداً في زيارته.

قبل ذلك الحدث بيومين كنت قد شهدت بقايا «سد مأرب» القديم. وعرفت كيف تقدمت العلوم والرياضيات وفنون الري والزراعة في ذلك العهد، وكيف أن تسامحاً عظيماً جعل شعباً متحضراً يقبل في ذلك الزمن بحكم امرأة هي «بلقيس». وعلى مقربة من السد القديم يقف «سد مأرب الجديد» ليروي مساحات هائلة من الأراضي الزراعية.. وبعد يوم واحد كنت أشهد العرض العسكري احتفالاً بالذكرى الخامسة والعشرين للثورة، لأرى جيشاً منضبطاً أروع ما يكون الانضباط، مسلحاً بأحدث الأسلحة، مدرباً أيضاً على الحرب غير النظامية التي يحتفظ الشعب اليمني كله بذكرياتها حية وملهمة في ذاكرته حين دمر الملكيين الغزاة وأسقط النظام القديم قبل ربع قرن.

وعند النصب التذكاري لشهداء مصر في اليمن وجدت عدداً هائلاً من الشباب،

كانوا يضعون وروداً وقلت لنفسي أنهم بالقطع لن يسمحوا للرجعية التي تقف متربصة على حدودهم أن تهدر كل هذه الدماء.. وتجعلها عبثا.

ها هو اليمن يستيقظ.. فياويل الظالمين.

قبل سبتمبر

كانت ثورة سبتمبر هي الثورة المظفرة ضد الإمامة، لكنها لم تكن أولى الانتفاضات الكبرى في العصر الحديث ومثلها مثل الانتفاضات كان القمع متواصلاً أبداً له طرق شتى.

ولأنهم قدموا لنا في المدارس تاريخ الأمة العربية وتاريخ أقطارها المنفردة مجزءاً مقطع الأوصال لم نعرف شيئا عن انتفاضات شعب اليمن فيما قبل هذا التاريخ ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢.

يقول الشاعر «عبد الله البردوني» في كتابه الفذ عن «اليمن الجمهوري» وهو يعالج حركة ١٩٤٨ التي توجت تحركات كثيرة وكانت بدءاً لمرحلة جديدة: لا يمكن أن تتحرك موجة في البحر بدون أن تحرك كل مياهه، ودون أن تتحرك بتحركها كل الأمواج، لأن البحر كل يهيج بعضه ببعض أو يسكن كله لكي يهيج.. كذلك الشعوب، فإن تحرك فئة - أيا كان موقعها - يسبب تحرك الفئة الأخرى، سواء كانت منسجمة معها، أو معاكسة لها، لأن تحرك جانب يستلزم تحرك مثيلة أو جيشان عكسه، وقد لاحظنا توالي الحركات في مناطقنا، وتعاقب حركات الفصائل على امتداد «العهد المتوكلي» إلى اليمن الجمهوري، كما لاحظنا اخماد هذه الحركات، وتأبى التحركات على الفناء وربما كانت شدة القمع سبباً في توالي اتقاد الحركات، لأن انتكاس الشعلة يزيدها اشتعالا. لهذا عجز القمع عن ايقاف حركة الشعب، فعندما تبدى الهدوء سائداً على أرجاء شمال الوطن، من آخر الثلاثينات إلى شباط (فبراير) ١٩٤٨، ظن القامعون أنهم استأصلوا كل نبض، مخدوعين بظواهر الهدوء الآني، فإذا بالتحرك ينجم من وراء حسبان سلطة ذلك الحين.

ومع توالي التصدعات والانتفاضات ومظاهر التوتر والقلق كان الحكم يجد نفسه محاصراً ومعزولاً يوماً فيوماً حتى جاء يوم..

«انتقل الإمام ومعظم أفراد حاشيته وأسرته إلى ايطاليا، وترامت إلى أسماع الشعب أنباء وأخبار تزكم الأنوف، وصرف الإمام وصحبه في بذخ يحسده عليه أمراء السعودية وشيوخ قطر وتوقفت مرتبات موظفي الدولة ثلاثة أشهر. وكان الإمام يردد في وقاحة «مامعناش فلوس اصبروا علينا» لقد سحبوا أموال الشعب إلى الخارج صرفوا منها على ملذاتهم وشهواتهم واصلاح ما أفسده الدهر والشذوذ من أجسادهم.

وأودعوا ما تبقى في البنوك! استعدادا لما تأتي به الأيام.» هكذا يقول محسن العيني أحد رجال ثورة سبتمبر ورئيس وزراء اليمن السابق ومندوبه الحالي في الأمم المتحدة وذلك في مقدمته لكتاب «كلودي فايان» ولعل من يقرأ هذه الكلمات سوف يقول ما أشبه هذه الصور بالسلوك الحالي لرجال الأسرة المالكة في السعودية.

قبل أن أقرأ هذا الكتاب كنت تصورت أن الزميل شوقي ابراهيم يهزل حين قال لي إنه بات ليلة في العراء على باب صنعاء سنة ١٩٥٨ لأنه وصل متأخرا وكان الإمام قد أغلق أبواب المدينة وأخذ مفاتيحها إلى القصر. كان لكل مدينة باب ومفتاحه لدى الإمام، وعلى الشعب أن ينام داخلها في الوقت الذي يحدده له ودون هذا فله العراء.

ثم كان أن انتصرت ثورة السادس والعشرين من سبتمبر لتطلق العنان للقوى التي خنقها الحكم الكهنوتي الاقطاعي البغيض ولتسلك طريقاً مشابهاً لمصر الناصرية حيث التنظيم السياسي الواحد، مؤتمر الشعب العام والخطط الخمسية والميثاق الوطني. ولتكن لنا هذه اللوحة الجديدة التي تصطرع داخل ألوانها وظلالها قوى القديم المتآكل والجديد الطالع.. ويتخذ القديم كما في السابق ستاراً دينيا.

نساء اليمن

وتتوجه الهجمة الدينية الرجعية ضد استنارة العقل وحرية الفكر وأجساد النساء فتفرض عليهن حجاباً كثيفاً، يظن الناظر من بعيد أنه ألقى فوق أجساد النساء ووجوههن قبل عشرات القرون. ولأنه أسود كئيب لا يظن الناظر من بعيد أنه سيجد خلفه حياة أو صخباً إذ سيرتطم حتما بظلام عقل أشد سوادا.

ولكن سرعان ما تكون المفاجأة البهيجة أن نساء اليمن، غالبية نساء اليمن الواعيات، يدركن جيداً وبقوة روحية عالية أنهن بالذات قد كسبن من الثورة أضعاف ما كسبت الفئات الأخرى وأنهن مدينات لها بمئات المدارس وعشرات الكليات التي دخلنها حيث نجد ٧٠٪ من طلاب كلية الطب من الفتيات وأن الحجاب ليس إلا شكلاً، أما جوهر مكاسبهن فهو حق التعليم وحق العمل، وهي حقوق يمارسنها في ظل صراع عنيف.

سباق محموم

فالموجة الفكرية الرجعية العاصفة التي تضع على وجهها قناعاً دينياً زائفاً تدخل في سباق محموم مع زمن تدرك جيداً أن الاشتراكية هي أفقه المحتوم. فتسعى باسم الدين لكعبلتها وعرقلة نهوض الفكر الثوري في أحضان القوى الجديدة التي ولدت في

خضم سبتمبر المجيد. إن الرأسمالية اليمنية تتطور وتنمو في كل الاتجاهات، نمواً محموماً عاصفاً، كأن لسان حالها يقول علينا أن نعوض ما ابتلعته من أعمارنا سنوات التخلف والظلام الإمامي البغيض ومازال الوقت مبكراً ليتساءل الناس: وماذا بعد؟

ولكن القوى الرجعية تطرح السؤال بكل قوة وتعد العدة للإجابة، بالتنسيق مع حماتها الذين قرروا إغراق منطقتنا في تفسير رجعي للدين منذ سنة ١٩٦٧ سنة الهزيمة.

الملكية السعودية

وأينما حللت في اليمن يواجهك ذلك الاحتجاج - الصامت غالباً المعلن نادراً - على الدور الذي يلعبه الحكم السعودي في محاولته شراء بعض زعماء القبائل واستمالتهم إليه وفي سعيه للتدخل في شئون الحكم وفي تلك الشبهات القوية التي أحاطت بمقتل رئيسين للجمهورية وبالمناوشات التي لا تتوقف على حدود المملكة مع الجمهورية العربية اليمنية بعد أن كان الحكم الملكي السعودي قد نجح في حالة من حالات الضعف الجمهوري في الاستيلاء على مناطق من أراضي اليمن وبقيت هذه المناطق بصفة دائمة بؤر توتر تنذر بالانفجار.

إن الأسرة المالكة في السعودية تخشى كالموت من نهوض شامل لكل قوى الجمهورية في اليمن، ذلك أنه من البديهي والمنطقي أن يكون نهوض اليمن مثلاً أعلى في شبه الجزيرة العربية وأن تكون الإطاحة بالنظام الملكي القبلي الاقطاعي التابع في السعودية من أجل جمهورية ديمقراطية حلماً يراود كل فصائل الحركة الوطنية في البلدين، حيث يؤدي قيام نظام جمهوري ديموقراطي في السعودية إلى إزاحة النفوذ الامبريالي الأمريكي منها، وفتح الآفاق أمام تطور القوى الحية في الشعبين في اتجاه التحرر الشامل والتقدم الاجتماعي ثم الوحدة القومية. وقبل هذا وذاك سوف يزيح من الطريق تلك القوة الرئيسية التي تقف لوحدة شطري اليمن بالمرصاد، خاصة وأن المحللين لا يستبعدون الآن دوراً رئيسياً للسعودية في تأجيج الصراع الداخلي الدامي في اليمن الجنوبي الذي انتج مأساة ١٣ يناير ١٩٨٦، وكان من بين أبرز نتائجه تشويه الاشتراكية والاشتراكيين ووضع العراقيل الاضافية في طريق وحدة الشطرين.

وربما بقوة مساوية لقوة التطور الرأسمالي في اليمن، تعد بعض الجماعات الدينية المدعومة من قبل السعودية - والتي جاء دعاتها الرئيسيون من جماعات الإخوان المسلمين في كل من مصر وسوريا - تعد العدة لكي يكون هذا التطور القائم على قدم وساق موسوماً بالرجعية المتسترة بالدين التي تخنق كل ما يتفتح من زهور حية في البلاد وتلاحق حركة تحرير النساء بصفة خاصة، وتحاصر حرية الفكر والاجتهاد وتطارد

المثقفين ملوحة بسلاح التكفير.

وتنتشر هذه الجماعات وبتمويل سخي من فلوس بترول السعودية في قرى اليمن وبين قبائلها لتضمن وجود هذه الفرامل القوية ضد التطور اللاحق والمنتظر لليمن الجمهوري، حيث يستند الفكر الرجعي المتستر بالدين - تماماً كما تفعل شركات توظيف الأموال والبنوك الإسلامية في كل من مصر والسودان - إلى قوة اقتصادية ومالية ضخمة يكون لها عادة قول فصل في سياسة البلاد واتجاهات تطورها المستقبلي.

فضائح ولكن

وإذا كان هذا النوع من النشاط الاقتصادي الذي يستخدم الدين ستاراً قد تعرض لأكثر من فضيحة في كل من مصر والسودان وتكتشف للرأي العام حقيقة توجهاته وأنشطته التي تخرب اقتصاد البلاد فإن اليمن الشمالي مازال ارضاً بكراً وهو بسبيله للتحول إلى بلد نفطي حيث تحتفل البلاد في أول نوفمبر ببدء التصدير وسرعان ما سوف تقفز هذه الجماعات في ظل التطور الرأسمالي لتكون لنفسها قوة اقتصادية جديدة فوق قوتها، وتشدد من هجماتها لأن النظام الملكي السعودي وحماته من الأمريكيين والشركات العالمية سوف يصابون جميعاً بمزيد من الذعر وهم يرقبون نهوض اليمن حيث سيكون بوسع الجمهورية الفتية الآن أن تستغنى عن جزء من المعونات ليصبح قرارها السياسي أكثر استقلالاً وقدرتها على المناورة أوسع بما سيمكنها في المستقبل وفي ظل هذا الجيش الحديث القوى المنضبط الجيد التسليح أن تسترد الأقاليم التي استولت عليها الأسرة المالكة السعودية في جيزان ونجران وعسير، والتي يشعر اليمنيون جميعاً إزاءها بمرارة خفية ولا ينسون أبدا أنهم تحت وطأة الحاجة قد اضطروا للتغاضي عن هذا الافتئات السعودي على حدودهم.

قال لي الأسطى عبد الباري: كان جواسيس الملكيين يقولون لشيوخ القبائل إن عبد الناصر اشتراكي أي أنه سوف يشارككم هو ورجاله في بناتكم وزوجاتكم وسوف تكون نساؤكم ملكا لهم.

لكن هذا النوع من الدعاية الذي رفع زوراً راية الدين كان له أثر بالغ على بعض القبائل ودفعت قوات الثورة والجيش المصري ثمناً باهظاً بسببه، وذلك بالرغم من هذه الشهادة الأمينة التي قدمها الرائد اليمني نعمان السعودي في ندوة العلاقات المصرية اليمنية حين قال: أشهد كأحد أفراد القوات المسلحة اليمنية تدرب على أيدي القادة المصريين واستفاد من جيش مصر الذي كان له الفضل في بناء جيش يمني قوي، أشهد أن أفراد القوات المسلحة المصرية كانوا مثالاً للخلق والمحافظة على كل القيم والتقاليد العربية الإسلامية.

عم عباد

في الطريق إلى مطار صنعاء حيث كان عليّ أن أعود وفي قلبي أشواق عارمة تجاه أهل اليمن وامتنان عظيم لنبلهم وطيبتهم وتحضرهم فاجأني عم عباد السائق قائلاً بلهجته البدوية: سلمي لي على جمال عبد الناصر.

لم يكن عم عباد يجهل أن عبد الناصر قد مات، لكنه عبر عن كل المشاعر التي يختزنها المواطنون اليمنيون البسطاء لدور جمال عبد الناصر وجيش مصر في مساندة ثورة اليمن.. هذا الدور الذي لا يغيب أبداً عن الذاكرة، ودائماً وأبداً ما يستدعي نقيضه، وهو الدور الملكي السعودي في محاولة قهر الشعب ومناوأة الثورة.

كنت ذاهبة إلى اليمن بفرح خاص، والفرح في زماننا المهين شحيح، وأقول لنفسي: ولو.. ها هو موقع في جنوب الوطن يحتفل بانتصار لم يجهضوه، ها هي بلاد تحتضن فرقة مسلحة فلسطينية فتقول للصهاينة لا.

حين رحل «اسامة بن يعقوب» أحد أحب أبطال الفنان المسرحي العظيم محمود دياب إلى نفسه - رحل من بلاد الأندلس حيث كان الحكم العربي يتآكل وينهار قاصداً مدينة القدس حيث يحرز صلاح الدين الأيوبي انتصاره علي الفرنجة ويحرر عاصمة فلسطين من الغزاة.. كان الفتى الشاعر القلب مهموماً بصورة المستقبل العربي، يسأل عن الزمن الراهن لا عن الزمان المتخيل، ولم ير هذا المستقبل ابداً بمعزل عن نهوض شامل لطاقات الشعب كله، وعن تملك هذا الشعب بوعيه الثوري المرتقب لمصيره. وكان التجار والكهنة والطغاة يقفون لرسالة أسامة وكتابه بالمرصاد وهو يبشر ويدعو لتوزيع الثروة القومية بالعدل حيث لا يمكن للسيف البتار وحده أن يحرر المدينة دون وعي جديد مساند وشعب حر من كل قيود الاستغلال والانتهاك.

مثل «اسامة» كنت في اليمن.. كنت أقول لنفسي بعد أن اقتربت قليلاً من بعض نساء اليمن المفعمات بالصحة والقوة الروحية، واللاتي لا ينسين ابداً أن امرأتين قد حكمتا البلاد في أزهى العصور قبل الاسلام وبعده. وبعد أن اقتربت من شبابه ومثقفيه: ترى ما الذي يختمر في أحشاء تلك البلاد الملهمة، وما الذي يمكن أن تنبئ به حركتها الصاخبة وهي خارجة بقوة من العصور الوسطى؟ وجدت أن سؤالي القلق يجتذب إليه سؤالاً آخر ضرورياً مثله وهاماً بنفس الدرجة:

- ترى ماذا كان سيحدث لو لم تنتصر الثورة المضادة في مصر لتضعها على طريق التبعية بل كانت اندحرت قوى هذه الثورة ليتواصل الخط الصاعد لحركة التحرير العربي، ذلك الخط الذي جعل من ثورة يوليو سنداً لثورة سبتمبر وجعل الاشتراكية افقاً مفتوحا؟

أما وقد انتصرت الثورة المضادة في مصر وثبتت أركانها فإن هذه الوضعية

الجديدة تلقي على عاتق اليمن مهمات وأعباء ثقيلة تدرك القوى الحية في البلاد حجمها ومغزاها وتخوض معاركها في ظل هذا الإدراك العميق.. بل وتزداد معاركها عنفاً بسبب ما جرى في مصر. ويكون من حق القوى الوطنية في مصر والأمر كذلك أن تتطلع إلى اليمن السعيد الذي يتطلع بدوره إليها حيث تتلاقى قوى حركة التحرر العربي من جديد على هذا الطريق الطويل الذي لابد أن يفضي إلى النصر يوماً، حين تخرج المنطقة من قبضة الملكيات الرجعية والنظم التابعة لتتحرر فلسطين التي يضعها اليمنيون في القلب من نضالهم وتتواصل مسيرة التقدم الاجتماعي. فسلاماً على اليمن السعيد!

---

١٤ اكتوبر ١٩٨٧



على باب اليمن الجديد

على باب اليمن الجديد

سوف ينقضي زمن طويل قبل أن يكون بوسعي أن أتخلص من ملامح هذا الصبي الذي بدا أنه دخل لتوه في المراهقة وقد جاء الينا جرياً على باب سجن «جعار» في محافظة ابين باليمن الجنوبي ليقول لنا: شاهدت كل شيء. كل شيء» كانت المنطقة مكتظة بسيارات قديمة ووجدت مع صديق لي مكاناً نختبيء فيه خلف شاحنة مقلوبة.. وشهدنا معاً كل شيء.. كانوا يجرون الشهداء على التراب وقد أعدوا حفرة كبيرة في الليل وقفز واحد صائحاً برجاء: إنني حي. ولكنهم دفنوهم جميعاً ورحلوا.

قال الأصدقاء المرافقون لنا من قادة الحزب الاشتراكي اليمني في المحافظة، إن هذا الولد يأتي كلما رأى زائراً ليحكي له ما رأى، ولا يستطيع أحد حتى الآن نزع هذه الصور البشعة من ذاكرته الغضة وسوف يعاني من آثار ذلك طيلة عمره.

ولكن هذا الولد نجا على أي حال وهو يستطيع في مستقبل الأيام أن يستخدم الذكاء والوعي لقراءة ما حدث. وتبقى الآثار المدمرة الأخرى على آلاف الأطفال الذين اضطروا أثناء أحداث يناير قبل عامين أن يشربوا من مياه البحر.. وأن يشاهدوا اخوتهم ورفاق ألعابهم يموتون من جراء الإسهال، وأن يراقبوا القتال في الشوارع والبيوت عاجزين بلا حيلة.

وما هذه إلا بعض الخسائر التي ينشغل «الحزب الاشتراكي اليمني» الآن بمعالجة آثارها دون أن يستطيع أحد حتى الآن أن ينسى أو يغفر للذين نسجوا خيوط هذه المؤامرة الدنيئة ضد الحزب وتجربة التوجه الاشتراكي الوليدة في ١٣ يناير ١٩٨٦ التي راح ضحيتها ١٣٦٠ شهيداً من أفضل قيادات الحزب العليا والوسيطة والقيادات الإدارية المدربة تدريباً عالياً في جهاز الدولة والجيش بالإضافة إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف مواطن سقطوا ضحية القتال العشوائي. ولا يمكن لزائر اليمن حتى بعد عامين مما حدث إلا أن يرى آثاره الغائرة في النفوس. كان سؤال الصديق الناقد «كمال رمزي» لي

مفتاحاً لمعرفة المزاج العام الثقافي في مصر ازاء ما يدور الآن في اليمن الديموقراطي.
سألني: ايه أخبار الإعدامات؟

قلت: أعدموا خمسة.

- بس!؟

- نعم وخففوا حكم الاعدام على ٢٤ آخرين وأصدروا عفواً عاماً على كل من لم تدنه المحكمة العليا.

أيقنت أن الصورة الأحادية الجانب التي ينقلها الاعلام العربي كله تقريباً هي السائدة، وأن حقائق ما جري وما يجري مازالت غائبة فلا أحد يعرف أن المحاكمات التي جرت على امتداد ١٠ أشهر (١٤٣ جلسة، وتابع الشعب اليمنى كله جلساتها تفصيلاً على شاشات التليفزيون، وكانت كما يقول اليمنيون أنفسهم أكثر رواجاً من مسلسلات التليفزيون المصرية). هذه المحاكمات هي أول محاكمة حقيقية تجرى في تاريخ اليمن المستقل ووفرت طبقاً لما قالته منظمة العفو الدولية واتحاد المحامين العرب كل الضمانات للمتهمين ومحاميهم والتزمت العلنية في كل شيء، بحيث أتيح للشعب اليمني بالإضافة إلى المكسب الهائل الذي حصل عليه من إعمال القانون لأول مرة في قضايا السياسة بعد أن كانت تصفية الخصومات السياسية تتم بشكل ثأري دون ضوابط، أتيح له معرفة تفصيلية بحقيقة الصراع داخل الحزب الاشتراكي اليمني، والقضايا التي كان يدور حولها ومواقف الأطراف المختلفة منها، وكشفت بما لا يدع أي مجال للشك أن «علي ناصر محمد» دبر وخطط لاغتيال قادة الحزب من أعضاء المكتب السياسي أثناء اجتماع تخلف أنصاره عن حضوره عمدا!!

وبعد أن نفذ جزءاً من خطته في قاعة المكتب السياسي، وبدأ يستشعر اشتداد المقاومة دفاعاً عن الحزب، قام بتدبير مذابح واسعة تستهدف اساساً تصفية الحزب جسدياً، وهي مذابح لا مثيل لها في وحشيتها، ضد أعضاء اللجنة المركزية وكبار العسكريين ورجال الدولة، من بينها مذبحة سجن جعار التي حكى لنا عنها الصبي وراح ضحيتها ٩٣ من أفضل القادة الحزبيين المدربين، ومذبحة أخرى راح ضحيتها مائة وخمسون ضابطاً من لواء الوحدة فى أبين وهم من خيرة المقاتلين بالإضافة إلى عمليات التخريب الواسعة جداً في المنشآت التي إن دلت على شيء فإنما على رغبة دفينة في الانتقام والثأر من شيء ما، ليس هو فقط هذه الهزيمة التي لحقت بعلي ناصر وأشياعه.

كيف؟

أخذت أتذكر قول جمال عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧: «لقد اكتشفت أن للرجعية أقوى حزب منظم في مصر». ولم تكن الرجعية في اليمن الديمقراطي قد سقطت بخروج الاستعمار البريطاني مدحوراً «كاللصوص يتسللون تحت جنح الليل» كما قال أحد قادة الاحتلال العسكريين ولم تكن أبداً قد سقطت حين توالت الحركات التصحيحية التي

قامت بها الجبهة القومية الحاكمة وصولاً لبناء حزب طليعي هو «الحزب الاشتراكي اليمني» بل أنها كانت تلتف وتتمترس بأساليب جديدة تتسم بالدهاء والمراوغة وطول النفس. وقد أثبتت خبرات الثورة في كل البلدان أن الصراع الطبقي لا يتوقف بمجرد وصول الاشتراكيين للسلطة، وأثبتت تجربة اليمن الخاصة أن القديم المحتضر يزداد شراسة وعنفا لدى السقوط وأنه يظل يرتدي ثياباً جديدة عصرية. إنه لم يكن من قبيل المصادفة أن ينخرط في القتال ضد الحزب وفي عمليات التصفية الوحشية عناصر بعينها من المحكوم عليهم سابقاً بتهم التآمر ضد الثورة وكانوا قد قضوا في السجون سنوات عديدة ثم أفرج عنهم وفروا إلى السعودية وتلقوا تدريباً هناك في معسكر «تابوك» ثم عادوا إلى البلاد في ظروف غامضة واحتلوا مواقع كبيرة في جهاز الدولة والحزب ومواقع عسكرية.

كان وهم انتهاء الصراع بمجرد الوصول للسلطة قد ساد.. وكان هناك من يخطط لهذه السيادة والخلط ببراءة أو تعمد بين حل الصراعات سلمياً في الأطر القائمة وبين طمسها والتضليل عنها.

الحاصل أن الحس الطبقي العالي في حزب طليعي قد خبا وهجه، وحدث ذلك الاسترخاء الذي تغري به السلطة وتتساوى فيه الأشياء والمنابع، ويجري طمس الفروق الكبيرة والصغيرة بين أبناء العمال والفلاحين الفقراء والمقاتلين في صفوف الثورة وبين ورثة التراث الاقطاعي وكبار الملاك والتجار القدامى الذين داهنوا الثورة علناً وعملوا ضدها سراً. وأخذت القيادة السابقة تلوث النقاء الطبقى للحزب الطليعي بفتح أبوابه على مصراعيها لهؤلاء الذين لم يقصروا فى إعداد العدة للانقضاض على الاشتراكية وضربها حين حان الحين.

سقط حكم علي ناصر محمد في أيدي هؤلاء وبدأ يفتح لهم باب الوطن بالتدريج ليقوموا بنشاطات هي مزيج من التجارة والشطارة والدعارة، وأصبح المقاولون فجأة أصدقاء للاشتراكية ودخل السفه الاستهلاكي النفطي إلى البلاد في شكل سلع لا يقدر على اقتنائها سواد الشعب لتخلق فسادا يتوغل بالتدريج في كل جوانب الحياة، وتقوم الوشائج مع نفايات الثقافة الرأسمالية عبر تدفق أجهزة الفيديو وأفلام الجنس والعنف بغزارة، وهي الظواهر التي يعمل الحزب الآن بكل قوة على مقاومتها، بعد أن راجع التجربة السابقة بكل خبراتها واستخلص دروسها المريرة.

ماذا لو كانت المؤامرة قد انتصرت، وترسخ الاختيار الرأسمالي الذي بذرت الثورة المضادة بذوره بهدوء وعلى مهل، حيث تحول عدد لا يستهان به من الشخصيات المرموقة إلى أصحاب ملايين في سنوات قليلة. تذكرنا بما حدث في مصر في السنوات الأولى للانفتاح.

فلو حدث هذا لقامت الرجعية العربية في تحالف وثيق مع الامبريالية بضخ المزيد

من فوائض النفط إلى اليمن لتصنع رواجاً زائفاً، وتنشئ فيه بعض المشروعات العصرية الكبيرة والصغيرة وتستثمر ما فيه من امكانيات طبيعية وثقافية هائلة للسياحة لتقول لنا بتفوق الرأسمالية على الاشتراكية، وقدرتها على النهوض بالاقتصاد، وقد تتباهى بمعجزة يمنية على غرار ما تقوم به في بعض البلدان التابعة مثل كوريا الجنوبية بينما تمارس الاستنزاف الوحشي للجماهير وتجويعها وافقارها، وكانت ستربط الطبقة الحاكمة بأواصر متينة من التبعية والفساد والترف الملوكي الذي شهدت البلاد نموذجاً فاحشاً له في ممارسات محافظ أبين السابق «محمد علي أحمد» الساعد الأيمن والناصح المقرب لعلي ناصر محمد، وهو الآن من أصحاب الملايين الكبار في الخارج. وفي مثل هذه الحالات تنتعش فئات واسعة من الطبقة الوسطى التي سرعان ما تنجذب لهذا النموذج الاستهلاكي الرأسمالي الخليجي، وتلقي - كما ألقى الآخرون - بكل المهمات الوطنية والاجتماعية وراء ظهرها بل وتسخر منها لتكون هي القاعدة الأوسع للتبعية بينما يتحول مجموع الكادحين إلى خدم للمشروع الرأسمالي الطفيلي التابع، وتسقط القلعة العربية الوطنية التقدمية المناوئة لكل مخططات الهيمنة الأمريكية على هذه المنطقة من وطننا.

هذا هو المصير الذي كانت تعده القوى الطبقية المعادية للاشتراكية لهذا الجزء الغالي من وطننا، وهذا هو ما كان ينتظره لو انتصر التوجه الرأسمالي الذي أشهر أسلحته الوحشية في وجه كل ما أنجزه الشعب والحزب دون رادع أو حدود أو ضوابط.

- ومن إمتى كان الرأسمال إنساني؟ هكذا يتساءل الشاعر عبد الرحمن الابنودي. ويرى الصحفي الانجليزي دافيد هيرست - الذي تابع الأحداث عن قرب وسجلها يوماً بيوم - أن الاشتراكية ليست مسئولة عما جرى في اليمن، وربما على العكس تكون قد قللت من حجمه، وما جرى في لبنان كان يمكن أن يتكرر في اليمن لولا وجود حزب، بل ربما لولا وجود تجربة اشتراكية.

ويقول أحد رجال الأمم المتحدة الذي عاش في عدن طيلة الأحداث «لو أن هناك حرباً يمكن أن نطلق عليها Gentleman war، أي حرب متحضرة لكانت هي تلك التي وقعت أثناء أحداث يناير ١٩٨٦ فلم يقتلوا طفلاً أو امرأة أو أجنبياً على الاطلاق»!

المهم أن حيوية الاشتراكية وقدرتها على تجاوز العثرات، مع اليقظة والوعي الذي بثه الحزب في صفوف الشعب رغم كل الظروف التي تعرض لها، حالت جميعاً دون انتصار التوجه الرأسمالي في البلاد، وتحركت منظمات حزبية مسلحة كان قوام إحداها من «لحج» أحد عشر ألف مقاتل دفاعاً عن الحزب بعد أن أعلنت الاذاعة المحلية هناك نفسها «صوتا للحزب الاشتراكي اليمني» خاصة بعد أن استمع الناس للبيان المزور الذي ألقاه «علي ناصر محمد» معلناً فيه إعدام «الخونة» من أعضاء المكتب السياسي ومن بينهم مؤسس الحزب وقائده «عبد الفتاح اسماعيل» وكان قد سجل البيان قبل بدء

الأحداث.

وحتى قبل هذه المجابهة الأخيرة الحاسمة فإن الانحرافات المتواصلة لنظام علي ناصر محمد لم تمر دون مقاومة باسلة من قادة الحزب وقواعده دفع بعضهم فيها حياته شهيداً دفاعاً عن الخط الصحيح. ولأن قادة اليمن السياسيين ومثقفيه، يتسمون بهذا التواضع الجميل والعمق الإنساني الأليف الذي يفصح عن نفسه في أشكال من البساطة والمودة الدافقة والتحضر الرفيع، لم أسمع أبداً من أى منهم قصة نضاله الشخصي ضد الانحرافات، وكنت أعرف بالمصادفة البحتة حكايات الذين تعرضوا للنفي والتشريد والسجن والاغتيالات المريبة في السجون وفي الشوارع والتصفيات الجسدية بطرق مبتكرة وفرض العقوبات خروجاً على اللوائح الحزبية والقوانين العامة للبلاد.

وأخذت ألوم نفسي لأنني لم أدرس تجربة الحزب الاشتراكي اليمني بالاهتمام التي هي جديرة به. بل أنني شعرت أن المثقفين التقدميين المصريين والعرب بعامة مقصرون بصورة فاضحة في حق النضال والتاريخ والثقافة اليمنية برمتها! وبصفة خاصة في حق تجربة التوجه الاشتراكي في اليمن الديموقراطي التي تتعرض لحصار خانق من قبل النظم الرجعية في تحالفها الوثيق مع الامبريالية، وقد استسلم هؤلاء المثقفون لمعلومات «المصدر الواحد» وهو المصدر الاعلامي الغربي الذي حجب بمهارة حقيقية ما يجري وقاد حملة تشهير واسعة النطاق بسبب تنفيذ حكم الاعدام في خمسة من المدانين إدانة صارخة لارتكابهم المجازر في حق قادة الحزب والجيش والدولة.

ومنذ أيام صرح علي ناصر محمد لجريدة سويسرية قائلاً إنه لم يكن في يوم من الأيام ماركسياً وإن هذا الفكر غريب عليه تماماً، وإن التقدمية لا تكون بالضرورة اشتراكية. وهو تصريح أمين جداً، لكنها هذه الأمانة التي لابد أن تشين صاحبها وتخجله، ذلك أنه ظل طيلة ما يزيد على عشر سنوات هي عمر انفراده بالسلطة بحكم البلاد تحت هذه الراية: الاشتراكية العلمية، التي طالما تحدث عنها بافتخار قائلاً إنه يسترشد بالماركسية اللينينية. في ضوء هذا التصريح يمكننا أن نفهم الموقف الذي تتخذه بعض النظم الوطنية والأحزاب الحاكمة التي ترفع شعارات اشتراكية حتى الآن في مد يد العون لعلي ناصر محمد رغم افتضاح الدور الذي لعبه والخراب الذي ألحقه بالبلاد، وهو الموقف الذي يشكل استمراراً لعدائها الأصيل للشيوعية والاشتراكية العلمية، وهو ما تمارسه بصورة أكثر ثباتاً ويقظة من ممارستها للعداء ضد الامبريالية والصهيونية. فعلى ناصر يعطي صكاً إضافياً يبرؤه من تهمة الماركسية. وللأسف الشديد فإن هذه النظم والأحزاب تكرر من جديد اخطاءها القديمة التي قادت معظم تجارب هذه البلدان لطرق مسدودة بل إن بعضها قد انقلب على اختياراته القديمة انقلاباً كاملاً وبدأت عمليات تصفية منظمة للدور القائد للقطاع العام وضاقت مساحته وانفتحت البلدان للمشروعات الرأسمالية والشركات العالمية والنصابين وشذاذ الآفاق من كل صنف.. إلى آخر الصورة حيث يتسلط في كل الحالات زعيم فرد يمسك في يديه

كل الخيوط ويتخذ وحده القرارات الحاسمة.

وربما كان من بعض النتائج الايجابية لأحداث يناير أن تخلص الشعب اليمني من مثل هذه الزعامة الشائعة، ففى عدن الآن نظام لا يؤله زعيماً فرداً، فلا تطالعك في الشوارع أو في الصحف أو التليفزيون صورة ذلك الملهم القادر علي كل شيء المنزه عن الأخطاء والخطايا صانع المعجزات سليل الآلهة أو الأنبياء.

حين زار صديق لي عاصمة عربية لأول مرة أفزعته صورة ذلك الزعيم الذي يعشق كل أنواع الأزياء كما أنه معجب بابتسامة نفسه لحد مثير، وقال لي ساخراً: كان وجهه يطالعني أينما حللت وفي كل شيء حتى أنني خفت إذا ما فتحت الماء أن تتدفق معه الصورة من الحنفية، وامتنعت عن التعامل مع الماء يوماً كاملاً اتقاء لهذا الوجه.

في اليمن الديمقراطي الذي تخلص من صورة الزعيم الملهم علي ناصر محمد بكل ما كانت تخفيه من تسلط ونزوع فردي للحكم وانفراد بالقرار، تطالعك الآن فحسب صور الشهداء من أعضاء المكتب السياسي وفي مقدمتهم المؤسس التاريخي للحزب عبد الفتاح اسماعيل، الذي قال عنه الشاعر عبد الله البردوني في قصيدته الجميلة «مصطفى» وهو الاسم الحركي للشهيد عبد الفتاح اسماعيل أثناء اختفائه في الأحياء العمالية وتنظيمه لصفوف الطبقة العاملة التي انخرطت في الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني. يقول البردوني:

يا «مصطفى» يا كتابا
من كل قلب تألف
ويا زمانا سيأتي
يمحو الزمان المزيف

كذلك فإن اليمن الديمقراطي على فقره، وشح مصادر الثروة الطبيعية فيه، هو البلد الوحيد في الوطن العربي الذي لا تتفشى فيه أمراض سوء التغذية، والذي انخفضت فيه الأمية إلى ما دون العشرين في المائة، والذي تحدد الدولة فيه إيجارات المساكن فلا يتجاوز إيجار أفخم المباني بضع جنيهات بينما يتوفر العلاج والدواء مجاناً وتستوعب المدارس كل الأطفال الذين بلغوا سن التعليم، صحيح هناك شكوى من انخفاض مستوى التعليم لكن هذه حقيقة لا توجد في أي وطن آخر.

ولا يملك المرء وهو يطوف في شوارع عدن، أو سيئون، أو ردفان، أو أبين، أن يجد رداً على سؤال، طالما سأله لنفسه في بقية المدن العربية: لماذا لا نجد في اليمن الديمقراطي هذا الامتثال العاجز الخائف ابدا؟

إن الرد على ذلك يكمن في حقيقة أن حياة الناس مؤمنة تأميناً كاملاً ضد المخاوف، ضد الجوع والتشرد، والمستقبل الغامض. وتتمتع النساء بوضع استثنائي لا شبيه له في أي مكان، حيث صدر قانون للأسرة ينصف المرأة انصافاً كاملاً كانسان

كامل الحقوق، فيحدد الزواج بواحدة ويعطيها حقاً في الإرث متساو مع الرجل، ويفتح لها كل مواقع الوظائف العامة بدءاً بمنصب القاضي.. وإن كانت هناك مسافة مازالت قائمة بين القانون والواقع العملي. وهي ظاهرة نجدها في كثير من التفصيلات.

يواجه اليمن الجديد مصاعب اقتصادية وينتظر شعبه تدفق البترول بفارغ الصبر... ولكن تأسيساً على هذه المصاعب، واعتماداً على الحالة النفسية التي خلفتها أحداث ١٣ يناير تنتظر اليمن موجة دينية سلفية يغذيها الآن بعض المليونيرات المهاجرين، تلجأ الى الجوامع لمحاربة الاشتراكية باسم الدين والدفاع عن الملكية الخاصة «المقدسة» في وجه الملكية العامة، التي تزداد رقعتها وتواجه المصاعب العادية.

هذه هي باختصار دولة تسعى بحق أن تكون أول دولة للعمال والفلاحين في وطننا العربي. وهي حقيقة تتكاتف قوى التخلف والرجعية في منطقتنا لطمس معالمها وإغراقها في الجزئيات والتفصيلات والتشويش عليها وإرباكها مع حلفائها وتصيد أخطائها الصغيرة أو حتى الكبيرة، وهو ما تحتاج إلى يقظة كل الاشتراكيين وأصدقائهم وتكاتفهم للدفاع عنها وحمايتها. وإلى هؤلاء الذين لا يزالون يدعون الحياد بين من لجأوا إلي التآمر والعنف الوحشي في إدارة الصراع السياسي، وبين من دافعوا عن أنفسهم وعن الحزب.. إليهم أقول إنه حياد ظالم خاصة بعد كل ما كشفت عنه وقائع المحاكمة من بشاعة، وهو حياد ينصر المعتدين وحماتهم ويغذي آلة العداء، للاشتراكية والشيوعية ويشوه الاشتراكية العلمية لا في الوطن العربي فقط وإنما في كل مكان آخر باسم «إنسانية» مريبة. إنهم باختصار يصبون الماء في طاحونة الحلف الآخر المعادي للتحرر والتقدم مهما تكن نواياهم.

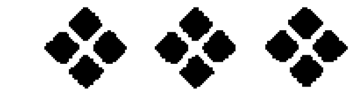
ماذا نتعلم مما جرى في اليمن الديموقراطي؟

إنه درس بليغ للأحزاب التقدمية في الوطن العربي التي مازال بينها وبين السلطة شوط طويل وجهد مرير تعرقلهما المواقف المائعة، وإدارة الصراع في الكواليس والغرف المغلقة بعيداً عن الضوء وعن رؤية المناضلين، وتسوية النزاعات السياسية بطريقة غير مبدئية أو واضحة، تفتح الباب واسعاً للمصالح الطبقية التي تكونت لبعض الشخصيات السياسية لكي تقدم ذلك النمط من التحليل السياسي البرجماتي الملائم لها ذاتياً بصرف النظر عن التطورات في الواقع الموضوعي، وهو التحليل الذي يحفظ هذه المصالح في نهاية المطاف بل يحملها ويضفي عليها مشروعية (ثورية) في بعض الأحيان، مما يؤدي لاستشراء المخاوف في صفوف المناضلين الحقيقيين حول جدوى تضحياتهم فيركن بعضهم للإحباط واليأس والعزلة ويتطرف البعض الآخر. ولأن الاشتراكية هي وطني الأول ولأن الكادحين أسرتي الأولى أقدم لهذا اليمن الجديد امتناناً بلا حد ومحبة أعجز عن التعبير عنها وبعض قلبي وفاء لهذه الراية المرفوعة

ببساطة واقتدار في زمن الهوان العربي، وللطريق الذي يشقه في جبال وعرة لكي يخرج العرب من عصور ما قبل التاريخ إلى الانسانية الحقة.. إلى الاشتراكية.

---

١٧ فبراير ١٩٨٧



بعد أن يبدأ الإضراب

بعد أن يبدأ الإضراب

«إنها مياه نقية.. هدية السيد شيراك لكم..»..

قالت الفتاة الريفية الجميلة كلماتها بحرارة، وهي توزع على مائدتنا أكواب الماء غير المعدني في أحد مقاهي الحي اللاتيني في باريس ربيع ١٩٨٣. وكان جاك شيراك عمدة باريس حينئذ يعد العدة لهزيمة الائتلاف اليساري الذي وصل إلى حكم فرنسا في انتخابات ٨١، بتنشيط ائتلافه اليميني، مستخدما ذلك المقر التاريخي البديع الذي قاد منه عمال باريس انتفاضتهم الباسلة عام ١٨٧١ وأقاموا الكوميونة العمالية الأولى..

انه «الاوتيل دي فيل».. الذي أصبح مقراً لمحافظ العاصمة..

ومثل كل اليمينيين الاذكياء، والاغنياء طبعا، استخدم جاك شيراك الوسائل الامريكية المبتكرة في الدعاية. وكانت هذه الفتاة الريفية تضع شارة حزبه في مكان بارز على صدرها، وهي تهدينا مياه السيد «شيراك»، مع ابتسامة لابد أنهم علموها كيف ترسمها بمهارة لمن تعرفهم ومن لا تعرفهم من الزبائن..

عرفت فيما بعد أن لحزب شيراك اليميني ثلاثة آلاف محترف سياسي يتقاضون رواتب عالية، كانت مهمتهم ومازالت هي العمل اليومي والدعاية لبرنامج اليمين الزاحف على فرنسا في صفوف الجماهير.. جاء «شيراك» بالشباب المحترفين من الريف.. ومن على مقاهي المدن حيث يتكدس العاطلون.. ومن أبناء البيوتات الرأسمالية الكبيرة التي أخذت تغذي في هؤلاء جميعا حلم الثراء وتغازله..

ولأن هذا الحلم كان قد راج بين الشباب الفقراء، بدا لي أن ابتسامة فتاة المقهى كانت صادقة وحقيقية..

وقرأت على الجدران ما قرأت..

ما من كابينة تليفون دخلتها في باريس حينئذ، وما من محطة مترو نزلت إليها - ولكل محطة شخصيتها وطابعها الفني، ويمنع القانون منعاً باتاً الكتابة على الجدران

- إلا ووجدت شعارا صارخا من شعارات اليمين الفرنسي، وسباباً مقذعاً ضد حكم «اليسار» مكتوبا بكل الخطوط ومصحوبا في أحيان كثيرة برسوم بذيئة، مع تهديدات صريحة للمهاجرين العرب، وللطبقة العاملة الفرنسية ونقاباتها وحزبها الشيوعي.

وفي بعض أكشاك الصحف كان عدد من الباعة قد تلقوا التعليمات الصريحة بإخفاء «الأومانيتيه» جريدة الشيوعيين.. وكم من النظرات العدوانية تلقيتها حين تصادف أن طلبت الجريدة من بائع نظمه اليمين في صفوفه..

كان التطرف اليميني يعبر عن سخط عميق مخزون ضد النهوض الشعبي العارم الذي حمل اليسار على الأعناق إلى الحكم قبل عامين.. وآن أوان الانتقام الذي تشحذ له كل أطراف الرأسمالية الكبيرة أسلحتها.. تماما مثلما فعل حزب الوفد الجديد بتراث يوليو الذي شرع في الانتقام منه حتى قبل أن يصل الوفد للحكم.. بل إن هذا الانتقام هو شهادة الصلاحية التي يقدمها مسبقا لكبار الملاك ولرأس المال العالمي..

وتؤتي حملة الرأسمالية الكبيرة ثمارها وكأنما حقنت شجرتها التي أخذت تشيخ بماء الحياة.. ويكسب الائتلاف اليميني الانتخابات البرلمانية.. ويأتي «بجاك شيراك» رئيسا للوزراء، لينخرط بنشاط فوق العادة في رأب التصدعات الخفيفة التي أحدثها حكم اليسار، في شكل سلسلة واسعة من قرارات التأميم للمشروعات الكبيرة، يعيدها شيراك الآن جميعاً إلى أصحابها، فوقها سلسلة من التشريعات التي تحدد دخول التلاميذ للجامعات وتجعله انتقائيا، وتجمد أجور العمال والموظفين وتفرط في تقديم التسهيلات لرأس المال بحجة تنشيط الحياة الاقتصادية وتلغي الضرائب على المهن الحرة.. الخ..

ولكن الرياح الشعبية تأتي بما لا تشتهي سفن اليمين.. ويرفض العمال والطلاب والموظفون كما رفضوا في الماضي أن يكونوا لقمة سائغة لرأس المال.. وما إن يقضي شيراك بضعة شهور في الحكم.. إلا وتتوالى الاضرابات..

بدأت موجة الاضرابات بطلاب المدارس والجامعات الفرنسية.. وامتدت لصحفيي وكالة الأنباء فسائقي السكك الحديدية والمترو وخطوط النقل الداخلي وعمال الموانىء والطيارين وعمال الكهرباء والغاز.. وموظفي القطاع العام.. الخ

وبات العالم كله الآن يعرف.. أن «فهلوة اليمين» وضعت فرنسا كما سبق أن وضعت انجلترا في موقف لا تحسد عليه الحكومات..

تقول موجة الإضرابات إن لحم الشعب مر.

كذلك تقول الإضرابات التي بدأت بإسكو والمحلة وكفر الدوار ثم عمال السكك الحديدية.. تقول لحكومتنا.. ان لحم الشعب مر أيضا..

امسك شيوعياً.. بل شيوعيين كثر يريدون «تخريب الاقتصاد.. تخريب الديمقراطية.. بل تخريب فرنسا ذاتها..» هكذا يصيح مساعد شيراك الذي لا تختلف

ملامحه عن اللواء زكي بدر رغم أن السيد «جاك توبو» ليس شرطيا..

وبعد..

لا أستطيع أن أتجنب الآن وصف هذه الطفلة التي تدثرت جيداً ووقفت تحت الثلوج ترسم علامة نصر بيدها اليسرى وتضع اليمنى في جيب معطفها وعلى الطرف الآخر من الصورة يبتسم لها سائق عجوز عضو في لجنة تنسيق إضراب عمال السكك الحديدية في فرنسا كان قد خرج لتوه من المفاوضات المضنية مع وسيط حكومي.. دون أن يرضخ للشروط محتميا بالقوة المنظمة الواعية لالاف المضربين.

ويعقد العمال المضربون اجتماعاً دورياً فيما بينهم، تنظمه اللجنة التنسيقية للأحزاب، يشاورون فيه ويتبادلون الخبرات ويغيرون «ورديات» الحراسة على المنشآت.

في سكك حديد فرنسا كان السائقون يقيمون في القطارات حيث يتعرضون لاشتباكات يومية مع قوات البوليس التي تعمل على إجلائهم لكى تشغل الخطوط تماما كما فعلت وزارة النقل والمواصلات ومباحث السكك الحديدية المصرية في يوليو الماضي حين سعت لتكليف بعض السائقين من الجيش بقيادة القطارات بدلا من المضربين..

من الزمن الجديد... ومن الإضراب.. يتجلى بشكل ملموس شعور العمال بقوتهم الفعلية.. وتنهض إلى جانبهم القوة الروحية والأخلاقية الكامنة في آلاف مؤلفة من الناس الذين يعولهم العمال، والذين يكتشفون بدورهم أن لهم قدرات مهملة.

كانت نساء عمال الحديد والصلب في حلوان سنة ١٩٧١ يتعلمن كيف ينشئن لأول مرة مطبخاً جماعياً لإعاشة المعتصمين.. وكان أطفالهن.. عمال المستقبل.. يقومون بدور المراسلة يستكشفون الطرقات.. يستطلعون مقدم الشرطة.. يحرسون الأبواب.. يتعلمون الصداقة والعمل المشترك.. ويختزنون في الذاكرة الغضة صوراً لا تنسى لحرارة التضامن وسحره..

وحين تجولت منذ سنوات في شوارع باريس المكتظة بالمارة، لأن اضرابا جزئياً بين سائقي المترو قد وقع.. ووجدت المحطات لا تقذف كعادتها في كل لحظة بعشرات الرجال والنساء إلى سطح الأرض ولا تبتلع عشرات آخرين.. كنت أنا القادمة من مصر.. من العالم الثالث أجدني رغم الفرح، أحسدهم لأن قوانينهم تنظم حق الاضراب ولأن كل أجهزة الحكم تنصت حين يعلو صوت العمال.

ولكنني شعرت بزهو اضافي لأن العمال المصريين رغم القوانين والسجون كانوا قد بدأوا يفرضون قانونهم الواقعي في الممارسة.

ومنذ أيام وفي مصر أيضا.. قضت محكمة القضاء الاداري بمجلس الدولة بالغاء قرار نائب محافظ القاهرة بحل الرابطة العامة لسائقي القطارات ومساعديهم وما يترتب

على ذلك من آثار..

واختتمت المحكمة قرارها قائلة: «إن إنشاء الروابط والجمعيات يعد مظهرا من مظاهر الحريات العامة وممارسة لحق المواطنين في تكوين الجمعيات وفقا للقانون دون أي تدخل من الإدارة».

ويقول شاهد الإثبات في قضية اضراب عمال السكك الحديدية «اسماعيل فايد» وهو مدير عام المنطقة المركزية للوحدات المتحركة أمام المحكمة التي يمثلون أمامها هذه الأيام.. أنه علم بالإضراب في الخامسة والنصف أثناء وجوده بمواقع الهندسة الميكانيكية ومقرها كوبري شبرا. وقال أن سبب الإضراب كان لتحسين حالتهم المعيشية بزيادة مرتباتهم والحوافز وزيادة الكيلو متر من ١١ مليما إلى خمس قروش.

وأضاف:

«إن السائقين كانوا حريصين على عدم الإتلاف أو المساس بأي شيء»

وقال اللواء أحمد زعتر مدير البحث الجنائي لشرطة النقل والمواصلات. «إن السائقين لم يحرضهم أحد» ويتبين للمحكمة ذلك التناقض المثير بين المبالغ الهزيلة (٢٠٠ ألف جنيه) التي كان السائقون يطالبون بها لتغطية احتياجات العيش الذي أصبح مستحيلاً وبين المبلغ الذي يزيد عن جنيه الذي يتقاضاه كبار رجال المباحث وكبار الموظفين كحوافز دون أن يقوموا بأي عمل لصالح الهيئة أو المواطنين!!

وكما كان إضراب عمال سكك حديد فرنسا هو أخطر إضراب لهم منذ ثمانية عشر عاما.

في باريس كما في القاهرة كان الصراع بين رأس المال من جهة والعمال من جهة أخرى يصل إلى ذروته ساعة المفاوضة على فض الاضراب.. فممثلو رأس المال يطلبون أولاً فض الاضراب ثم التفاوض حول الشروط.. ولكن العمال في الحالتين وقد تعلموا عبر تاريخ النضال الطويل أن لا يثقوا أبداً في رأس المال رفضوا إلا أن تعلن الإدارة قبولها بمطالبهم الأساسية.. وهي في الحالتين رفع الاجور وتحسين ظروف العمل.

«سوف ننهض معا.. وننتصر معاً فإلى الامام أيها العمال» هكذا يهتف مهندس عجوز قارب سن المعاش في جمع السائقين الحاشد في باريس وقد شارك في الإضراب منذ بدايته حتى نهايته..

وقد لا يكون قول هذا المهندس العجوز دقيقا تماماً في حالتنا فسوف ننهض معاً وقد ننتصر معاً.. فمازالت الشروط التي يناضل فيها عمال أوروبا وأمريكا أفضل بما لا يقاس ..

٢١ يناير ١٩٨٦

❖ ❖ ❖

في انتظار العمال

في انتظار العمال

ومع ذلك، ها هي كأسهم
عصارة محن أليمة، تأتيك من مسافات بعيدة
إنها فرحة الرجل الحبيس
ليس له من رفيق غير الظلام والأمل
إنه داخل المنجم يعرف
متى يجيء الربيع فواحاً بالعطر
لأنه يعرف أن الانسان يواصل النضال
حتى يبلغ آية الوضوح

كانت هذه بعض كلمات قصيدة «كوبا» لبابلو نيرودا شاعر شيلي العظيم أهداها إلى «كوبا» في عيد ثورتها. وكان الصوت الأوضح والأكثر جلاء فيها قادما من أعماق الأرض.. من عمال مناجم النحاس في شيلي.. وعمال المناجم في العالم أجمع.. فقد كان نيرودا بولائه للطبقة العاملة في شيلي يعلن الولاء لعمال العالم.. وعلى طريقهم يسير.

ولو أن نيرودا الذي مات قهرا عقب الانقلاب الدموي ضد الحكم الديمقراطي الشعبي في شيلي عام ٧٣ - لو أنه عاش فربما كتب قصيدة عظيمة أخرى لعمال العالم فى أول مايو من عام ١٩٨٦ الذي حل معه العيد المئوي للعمال.. فذلك اليوم كان سيعني الكثير حتما لشاعر وظف مواهبه وطاقاته وأعطى شعره وعمره كله لقضية الطبقة العاملة وثوراتها.. فحزن لإخفاقاتها وتفجر شعره جداول وأنهارا تمجد انتصاراتها وتفخر بمآثرها.

نقب بدأب في كل الأساطير والحواديت التي خلقها الإفريقيون والهنود وهم سكان القارة الأصليون ليكتشف هذه العلاقة الحميمة بين الكدح والفرح، بين العمل والسعادة،

ويكشف أيضا ببصيرة شفافة وروح صافية ان الاستغلال من كل صنف يقف حائلا بين الكدح والفرح وبين العمل والسعادة.

فماذا كان الشاعر العظيم سوف يكتب يا ترى لو قدر له أن يعيش ليشهد وقائع أطول إضراب في تاريخ الطبقة العامل على الاطلاق.. ذلك الاضراب الذي قام به عمال قريبون إلى قلبه هم عمال المناجم، وكان إضراب عمال المناجم الانجليز الذي استمر قرابة العام وبالرغم من أنه لم يحقق كل أهدافه أو حتى أهدافه الأصلية، فقد كان تتويجاً مجيداً للعام الختامي للقرن العمالي.. ذلك القرن الذي افتتحه عمال أمريكيون بواسل دفع بعضهم حياته فداء مطلب عادل بسيط. وبعد ثلاثين عاما فقط كان عمال روسيا يقودون أول ثورة اشتراكية ظافرة.. لتخط الطبقة العاملة على امتداد المعمورة أنصع الصفحات على وجه هذا العصر.

هذا العالم.. خطأ

تفشل مفاوضات اتحاد عمال المناجم مع حكومة تاتشر من بداية عام ١٩٨٤ وتقرر تاتشر إغلاق عشرين منجماً مما يعني شطب عشرين ألف فرصة عمل لأنها مناجم غير اقتصادية.

وكل عمال المناجم الذين جرب أجدادهم منذ نهاية القرن الماضي وآباؤهم في أوائل هذا القرن مرارة التشريد والجوع بسبب إغلاق المناجم قد تعلموا جيداً خبرة الماضي القريب والبعيد.

ومن بين صفوف العمال.. وفي خضم نضال جيل جديد بدأ ممارسة العمل النقابي والحزبي في نهاية الخمسينات نشأ وتربى «آرثر سكار جيل» ابناً باراً للطبقة العاملة، والذي انتخب فيما بعد رئيساً لاتحاد عمال المناجم.

«حين فتحت عيني على الحياة وجدت عمال المناجم يموتون في سن الشباب، وتزداد بينهم نسبة التسمم الرئوي، وحين تغلق الحكومة مناجم يعجزون عن إيجاد عمل آخر.. وتتشرد أسر وتضيع. كنت في الخامسة عشرة من عمري، وقلت لنفسي بل وقررت أن هذا العالم خطأ، إنه معوج، وكنت أريد أن أصحح الخطأ وأقوم الاعوجاج على التو بين يوم وليلة لو أمكنني ذلك.. كنت قد خرجت من المدرسة دون أن أتم تعليمي وبحثت عن عمل حيث يعمل أبي.. في المناجم، وكان أبي مناضلا عماليا واسع النفوذ بين رفاقه ومنذ ذلك التاريخ لم تفارقني همومهم.. هؤلاء الذين يعملون على سطح الأرض أو الذين يخرجون في نهاية يوم العمل سود الوجوه من باطنها».

«ولم أغفر أبدا لأصحاب رؤوس الأموال أو أضع ثقتي في أحدهم»

سكارجيل.. وتاتشر

تلقى «سكارجيل» تربيته الأولى في رابطة الشباب الشيوعي ثم انضم فيما بعد إلى حزب العمال البريطاني بعد أن أصبح قائداً نقابياً مرموقا.

«وليس هناك شبيه له في انضباطه وإدمانه للعمل وصلابته السياسية الا مرجريت تاتشر» كما يقول أحد كتاب سيرته. هو يدافع عن مصالح العمال بثبات وهناك يوظف مواهبه، وهي تدافع عن مصالح الرأسماليين وهناك توظف مواهبها.

بدأ الإضراب الذي انضم اليه عشرات الآلاف من العمال الذين توحدوا في «جبهة قوية لم يعرف لها التاريخ مثيلا» وكان بينهم المسيحيون من كل الملل وغير المؤمنين واليهود بل والعمال الآسيويون البوذيون الذين لا يؤمنون بأي من الأديان السماوية فضلاً عن أنهم ملونون.. توحدوا جميعاً تحت راية النضال العادل ضد شبح البطالة وضد رأس المال.

وحين وحدهم العمل وجمعت بينهم المصلحة.. عجز رأس المال الذي يبذر كل أنواع الفرقة عن أن يفرقهم فوقفوا موحدين سواسية كأسنان المشط.. وحدهم الاستغلال كما فجر وعيهم.. الذي نشط بانتخاب قيادات يسارية لاهم الفروع.

ولا يمر انتخاب اليسار عادة بسهولة

وكثيرا ما تعرضت القيادات اليسارية البارزة في الحركة العمالية لقهر الشرطة والادارة.. وكانت الشرطة والإدارة تتسامحان نسبيا مع اليسار اذا ما وصل الى قيادة بعض المناطق العمالية أو إدارة المناجم الصغيرة أما حين يصل إلى قيادة الفروع ثم الاتحاد العام كما هو الحال مع «آرثر سكارجيل» فان السعار يصيبها وتكشف عن شراسة لا مثيل لها، عبرت عنها «تاتشر» أصدق تعبير.. أما وقد كان سكار جيل ومازال مستعصياً على الفساد والإفساد يصعب شراؤه، كما فعلوا من قبل مع سكرتيري بعض النقابات، وكما تفعل الرجعية في مصر، فان السعار يتزايد وتبدأ حملات التلويث والتشهير، والملاحقات القضائية.

ولكن الإضراب يتواصل ويلتحق به المزيد من العمال، ويلقى أشكالا شتى من التضامن.. حملات جمع المال لصالح المضربين.. مظاهرات طلاب المدارس والجامعات.. تضامن قطاعات المثقفين التقدميين..

الخائن.. بطلا قوميا

خطط «سكارجيل» ورفاقه للإضراب العام كما لو أنه معركة حربية، وضعوا خريطة في مركز الاضراب معلقة على الحائط بعرضه تماما مرصعة بعلامات حمراء مميزة

على محطات الطاقة الكبرى ومخازن الوقود الرئيسية، ومواقع عمال السفن.. والحديد والصلب.

وبدأت الصحف العمالية تدخل بثقل بالغ إلى الساحة محرضة ومنظمة.

فسواء تلك التي يصدرها الحزب الشيوعي البريطاني أو حزب العمال أو النقابات فجميعها لعبت دورا أساسياً في ايقاظ الذاكرة الخصبة التي تحتضن التراث النضالي للعمال، خاصة عمال المناجم منذ نهايات القرن الماضي، وجعلت العمال المنظمين في هذه الهيئات يحفظون عن ظهر قلب قصص التدخل البوليسي والحكومي لبذر الشقاق في صفوفهم ويعرفون جيدا ملامح هؤلاء الخونة الذين طالما ساعدوا الأعداء على إفشال الاضرابات الجماهيرية قبل أن تحقق أهدافها.. فأخذت الصحف تسخر منهم بالكاريكاتور والنكات وهي تكشف عن تاريخهم..

ويحتدم الصراع ويمتد على ساحات جديدة ويتطور يوما فيوما، ليصبح واحدا من أكبر مواقع تجمعات المناجم في ذروة الاضراب مسرحا لعراك هائل بين مجموعات كبيرة من العمال الذين يتقاضون أجورا عالية تفوق كثيرا معدل أجور عمال المناجم على المستوى القومي، وقد مواجهة رفاقهم المضربين.. ووقفت الشرطة بقوات هائلة تفصل بين الفريقين.

الفرق الطائرة

كان سكار جيل الذي خرج من سجن لسجن ومن مستشفى لاخر بعد أن اعتقل المئات وجرح المئات يطوف بالمواقع العمالية التي لم تلتحق بالاضرابات ليخطب في العمال ويتفقد صفوف المحرضين، فقد ابتكر اتحاد عمال المناجم شكلا جديدا للتحريض على الاضراب أطلقوا عليه اسم «الفرق الطائرة» التي تنتقل من موقع لآخر، وهناك أخذ يدعو الجميع لليقظة والوحدة.

كان سكارجيل قد حرص طيلة تاريخه كله على أن يمتزج وعي الطبقة العاملة النقابي الاقتصادي بوعي سياسي ثاقب وكان مرتكز هذا الوعي ومنطلقه هو هذا الشعار القديم - الجديد.. يا عمال انجلترا اتحدوا.

«فحين نكون منقسمين تكون هزيمتنا مؤكدة.. علينا أن نوحد العمال.. علينا أن نبدأ الحملة ببرنامج تعليمي واسع النطاق لنكسبهم كلية حتى يحاربوا دفاعا عن هذه الصناعة.. وعن عملهم».

الاتجاه.. يسارا

فماذا جني المضربون بعد أن أغلقت تاتشر المناجم وفقد العمال عشرين ألف وظيفة؟

تبينوا حقيقة عدوهم وضرورة استمرار النضال ضده..

«تسييس الطبقة العاملة هو الكفيل وحده بأن يقرب الينا ذلك اليوم الذي يتجه فيه المجتمع الى بناء الاشتراكية وسوف يكون حينئذ يوماً لا رجعة فيه أبداً.. أبداً..» كما قال سكارجيل

حين كان هذا القائد الفذ بين عشرات الآلاف من عمال المناجم لامعاً يدعو لبناء الاشتراكية بحرارة وتدفق «كأنها هدف شخصي للغاية» كان يثير الذعر بين صفوف حزب المحافظين الحاكم وفي دوائر المال والأعمال التي أفزعها أكثر من أي شيء آخر أن وجود سكارجيل والتيار اليساري الراديكالي الذي يمثله على رأس اتحاد عمال المناجم كان يقود لا فحسب بقية الفئات العاملة يساراً - وانما ايضا يقود حزب العمال البريطاني نفسه الذي لعب طول عمره دور الاحتياطي الاصلاحي للرأسمالية الانجليزية يقوده يساراً. والحصاد؟

في انتظار اليسار

كان الكاتب المسرحي الأمريكي كليفورد أوديتس قد كتب مسرحية شهيرة من فصل واحد في اربعينيات هذا القرن عنوانها «في انتظار اليسار» وكانت هذه المسرحية سببا في مساءلته أمام لجنة النشاط المعادي للولايات المتحدة الأمريكية التي أنشأها السناتور مكارثي وحققت مع كل الفنانين والكتاب التقدميين في ذلك الحين بتهمة الشيوعية.

وحين سئل أوديتس ذات مرة لماذا لم تطلق على مسرحيتك اسم «في انتظار العمال».. قال لأن بعض العمال بل الكثير منهم يذهبون إلى اليمين الذي يرشوهم ويصبحون بورجوازيين على طريقة ذوي «الياقات البيضاء».

والان.. والرأسمالية العمالية تواجه أزمة خانقة حيث تفلت المستعمرات واحدة بعد الاخرى لم تعد قادرة كما كانت في الماضي على رشوة الطبقة بل انها تدفع إلى صفوفها بحلفاء جدد من البورجوازية الصغيرة يعجزون عن مواصلة الحياة فرادي وجماعات تضيق أمامهم آفاق الاصلاح وتكاد أن تنسد.

ورغم أن الرأسمالية تحاول أن تلعب بهم لتجديد شبابها واضفاء بريق عصري على وجهها البشع، فإنهم يختارون الآن النضال من أجل الاشتراكية.. ويحق لنا الآن.. أن ننتظر العمال.

طريق للعمال

تعلو على أبواب مناجم الذهب والفحم كلمات هذا النشيد..

«.. إن كل الآلات تتوقف اذا شاءت يداك القويتان».. ولابد أن ثلاثمائة وخمسين ألفًا من عمال المناجم السود في جنوب أفريقيا يضيفون الآن لهذا النشيد العمالي الثوري الذي غناه العمال الألمان والانجليز والفرنسيون في اضراباتهم الكبرى، لابد أنهم يضيفون اليه الآن كلمات النشيد الذي كتبه الشاعر الافريقي الجنوبي الشاب «بنجامين مولويز» قبل أن يصعد فخورا الى حبل المشنقة بعد اتهامه بقتل أفراد من الشرطة البيضاء ليعلن: «المجد للشعب المقاتل».

فالمجد للشعب المقاتل في جنوب افريقيا.. ولطليعته العمالية التي تنقل الكفاح الشامل الآن إلى مرحلة جديدة. شعب تعلم، في معاركه المريرة الطويلة ضد النظام العنصري، أن في وحدته وحسن تنظيمه تكمن القوة الفعلية، وتأتي الطبقة العاملة المنظمة بطبيعة عملها وبأعداد هائلة في مواقع الانتاج الحديث للذهب والفحم لتبرز له بشكل عملي أن هذه الوحدة هي سلاح.. بل هي السلاح.. شريطة أن يكون الهدف واضحا لا لبس فيه.. إنه إسقاط النظام العنصري.

وطالما تساءل المحللون السياسيون في أوروبا الغربية وأمريكا:

ترى ماذا سوف يبقى لهذا الشعب الذي جرده النظام العنصري من كل شيء حين يحصل على حقوقه؟

ويرد قادة حزب المؤتمر الأفريقي سوف يبقى له الدأب والتراث الكفاحي العظيم وحسن التنظيم وقبل هذا وذلك طبقة عاملة قوية ليست لديها أي أوهام.

أضخم إضراب

ويكتسب هذا الإضراب الضخم والأول من نوعه في جنوب افريقيا أهمية خاصة تضعه في مقدمة الاضرابات الهائلة المشابهة في كوريا الجنوبية وانجلترا.

إذ تكتسب النقابات في جنوب أفريقيا طابعاً سياسياً متزايدا، والنضال السياسي يندمج هناك في النضال الاقتنصادي.. كما ينمو النضال الاقتصادي ليتخذ طابعاً سياسياً وطنياً على الفور وهو ما يتضح جلياً في مطالب المضربين.

رفع الأجور، تحسين ظروف العمل، حرية التعبير، إجازة سنوية طويلة مدفوعة الأجر، اعتبار يوم ١٦ يونيه ذكرى الانتفاضة الهائلة في سويتو عطلة مدفوعة الأجر كيوم قومي للسود.

ولأن القمع السافر الصريح الذي يمارسه الحكم العنصري لم يترك المجال لأية أوهام

كي تعشش في عقول السود وخاصة العمال، فإن فكرة توحد الشعب الكادح مع نظام الحكم أو مع أحد رموزه ليست واردة، بل إن الكنيسة الأفريقية قد انخرطت بدورها في النضال بصورة لم تسبقها إليها كنيسة أخرى.

«.. ولم لا.. فقد يأتي الوقت الذي تدعم فيه جنوب أفريقيا الكفاح المسلح للإطاحة بنظام التفرقة العنصرية وإحلال نظام عادل».

هكذا صرح القس ديزموند توتو رئيس أساقفتها ويواصل:

«إن ما يواجهنا الآن هو موقف مشابه لذلك الذي وجدت الكنيسة نفسها فيه إبان حكم هتلر وصعود الفاشية.. عليها أن تقاوم..»

.. نعم إن عليها أن تقاوم، وكان القسس الشبان في الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية قد انخرطوا بدورهم في الحركات الثورية وفي حرب العصابات التي يشنها الثوريون لمواجهة عدوان الامبريالية الأمريكية عليهم..

إذ كان عليهم أن يقاوموا...

يخرج من الجموع الهائلة «سيريل رامافوزا» قائدا ومنظما عبقريا.. درس القانون وبدل أن ينشىء لنفسه مهنة ويحظي لنفسه بموقع في المجتمع العنصري يمكن أن تؤمن له دراسته، انخرط في النضال إلى أن أصبح السكرتير العام للاتحاد الوطني لعمال المناجم في الرابعة والثلاثين. وشأن الطبقة العاملة في كل أرجاء الدنيا ما أن تدخل بثقلها في الكفاح حتى تلد القادة والمنظمين، وفي بضعة أسابيع يتحول المنظمون القلائل إلى مئات ومع تطور الحركة يصبحون بالآلاف ويسفر الانتظام والتلاحم التلقائي الذي يعرفه العمال في مواقع الانتاج حين يكون الوعي قد أيقظ المعنى النبيل فيه ويسفر عن كل المواهب والقوى الكامنة والقدرة على العطاء وبراعة القيادة وروح الانضباط الحزبي والولاء المطلق للجماعة.. ويصبح الاضراب نموذجيا في انضباطه..

وبالطبع جرى اعتقال مئات من العمال المضربين من بينهم المنظمون والمسئولون في النقابات الذين وجهت لهم الحكومة تهمة.. «إرغام العمال على الإضراب» حيث رد رامافوزا ساخرا:

«هل بوسع أحد أن يرغم ثلاثمائة وخمسين ألفا من العمال على الإضراب..»

ملحوظة: تحصل حكومة جنوب أفريقيا على ٦١٪ من عملتها الأجنبية من تصدير الذهب بينما لا يتجاوز أجر العامل الأسود خمس أجر العامل الأبيض عن نفس العمل.

وفي كوريا...

في السنة الماضية وحدها كان هناك أكثر من ٢٥ ألفا من العمال بين قتيل ومصاب إصابة تقعده عن العمل في كوريا الجنوبية وجرت عدة انفجارات تلقائية يائسة وغير منظمة حيث لا يتمتع العمال بحق انشاء النقابات فهو حق مقصور على أصحاب العمل.

فماذا جرى للمعجزة الكورية التي دأبت صحافتنا وبعض رجال الاقتصاد عندنا على الدعوة لتقليدها حتى نكون قادرين على إتيان معجزة أخرى عن طريق تصدير منتجات رخيصة.. والالتحاق الكامل بالإمبريالية..؟

وفي كوريا ينفق العمال من أعمارهم أطول وقت عمل في العالم.. ومن هذا العرق الغزير والعمر القصير صنع العمال الكوريون خلال ثلاثة عقود ما يسمي «بالمعجزة» التي بدأت سنة ١٩٧٠ كواحدة من «أربع معجزات» مجاورة وذلك قبل أن يبدأ مسلسل الانفجارات ويتكشف على الملأ ذلك الوجه القبيح للعنف الرأسمالي الأجنبي والمحلي..

كاد الاضراب الذي بدأ بعمال صناعة السيارات «المتعددة الجنسيات» أن يصبح اضرابا سياسيا شاملا حين التحق به.. سائقو التاكسي وعمال بناء السفن وعمال النقل والفنانون والحرفيون وعمال الاثاث وعمال عدد متزايد من الصناعات الخفيفة الأخرى.

«هو كالنار في النايلون».. هكذا يقول أحد المنظمين للاضراب الذي ظل موقعه هادئا، وسار الاضراب فيه وفق النظام المرسوم فأخذ يتأمل مع واقع الحال ويعقد المقارنات.

الغناء.. الغناء

أخذ العمال في جنوب افريقيا يغنون أمام منجم الذهب الذي أضربوا عن العمل فيه.. كانوا يغنون «كل الآلات ستتوقف اذا شاءت يداك القويتان». وكانت قوات الشرطة البيضاء تحوم حول المنطقة التي ضرب حولها العمال سورا بشريا مسلحا بالعصي والحجارة واليقظة وبتعليمات محددة واضحة من قياداتهم أن يتجنبوا أي اشتباك وأن يمنعوا الشرطة أيضا من اختراق ذلك ذلك السور البشري إلى داخل المناجم حتى لا تقوم كالعادة بتخريب الآلات ثم إلقاء القبض على العمال الذين يلصق بهم الاتهام كما هو دأب السلطات القمعية في كل مكان، وألقى أحدهم القبض على شرطي يحاول التسلل ووجهوا له تهمة التخريب..

وكلما نجحت التهديدات والإغراءات في دفع عدد صغير من العمال للعودة الى العمل كلما كان الاتحاد الوطني قادرا على تجنيد مزيد من الآلاف للانخراط في

الاضراب. قالت الشركات إن ثمانمائة عامل قد عادوا للعمل خوفا من التهديد بالفصل، وكان عشرة آلاف آخرين يلتحقون بالاضراب.. وأسفرت المعركة عن فصل عشرة آلاف عامل من وظائفهم.. ستجد النقابة نفسها ملزمة بتأمين حياة هؤلاء وأسرهم.. ويتزايد التلاحم المادي والمعنوي بين العمال فان من يتقاضون أجرا سوف يدفعون لرفاقهم.. بما يعنيه ذلك من اعلاء لشأن التضامن..

في جنوب افريقيا يحتدم النضال الشعبي والعمالي في قلبه ضد النظام الرأسمالي العنصري وأقرب النظم في العالم تشابها مع اسرائيل ويتداخل الإضراب الاقتصادي والسياسي فهما وجهان للعملة.

وفي انجلترا يبدأ من جديد اضراب عمال المناجم ضد نظام هو معقل من معاقل الرأسمالية في العالم وهناك يتداخل الاقتصادي والسياسي.

وفي كوريا يتلازم حق انشاء النقابات والصحف مع المطالبة برفع الاجور وتحسين ظروف العمل.

وتتداخل في نضال الطبقة العاملة في العالمين الرأسمالي والتابع مهام كثيرة.. أبرزها جميعا مهمتان:

الأولى تحطيم بقايا النظم القديمة.. سواء كانت.. اقطاعا صناعيا كما هو الحال في كوريا، أو تفرقة عنصرية كما هو الحال في جنوب افريقيا، أو ثورة مضادة كما هو الحال في مصر أو هجوما يمينيا كاسحا على المكاسب الشعبية كما هو الحال في انجلترا، وذلك لفتح الباب أمام ظروف شعوب هذه البلدان جميعا لتحقق المهمة الثانية وهي بناء الاشتراكية والتي يقف العمال في طليعة قواها..

اذن.. فان الصراع الاجتماعي لم ينته بقرار أعظم اتخذته الدولتان الكُبريان كما يحلو للبعض ان يقول وهو يفصل بين الاقتصاد والاجتماع فصلا تعسفيا من أجل هدف بريء في بعض الأحيان وخبيث في أكثر الأحيان هو انكار الطابع الأساسي لعصرنا باعتباره عصر الانتقال الى الاشتراكية.

وحتى أشكال النضال التي يقول عنها هؤلاء وهم يمطون شفاههم «لقد باتت قديمة.. لقد عفى عليها الزمن» وذلك بهدف التنصل منها أو إدانتها، إن هذه الاشكال أصبحت لسوء حظهم جديدة كل الجدة لكنها اكتسبت في الزمن الجديد والأوضاع الجديدة شكلها الخاص فأتقن الكادحون وعلى رأسهم الطبقة العاملة استخدام أدوات هذا العصر، واستثمار نتائج الثقافة التي راكمتها الشعوب في نضالها الطويل ليصبح عمالها الآن أرقى وأكمل..

في الماضي كان العمال يخربون الآلات حين يفيض بهم البؤس والارهاق والآن يحرسونها مع الوعي والتنظيم والقدرات الجديدة المكتسبة.. التي تواكبها أشكال جديدة من الإفقار والبؤس.

وحدها الطبقة العاملة الثورية لا تقعد بجانب الحائط لتشكو حالها بل تبادر للفعل المنظم حين تمسها عصا الوعي السحرية وتتمرس بمعارك الاضراب والاعتصام والاحتجاج فتلهم بقية السكان وتصبح هي القلب الحي النابض للتغيير الشامل، تصبح العملاق المدرب الذي يذود عن كل الكادحين بينما يعلمهم النضال معنى الحرية الشاملة.. والحقيقة..

---

١٤ مايو ١٩٨٦



تلك المرأة الوردة

تلك المرأة الوردة

عندما التقيت بها في خريف ١٩٧٤ كانت قادمة لتوها من جولة مفاوضات مضنية في باريس مع «كيسنجر» وزير خارجية أمريكا حينئذ. كان الإرهاق الذي يكسو ملامح السيدة «بن» وزيرة خارجية فيتنام يفيض جلالاً وحكمة على ملامحها الآسيوية، ويستدعي إلى المخيلة صور الآف مؤلفة من النساء الفيتناميات اللاتي انخرطن في المقاومة المسلحة ضد الجيش الأمريكي الذي ساند النظام العميل في سايجون. كما أنها تجعل تلك المخيلة قادرة على استيعاب مشهد من مشاهد البطولة الشعبية الكبرى في التاريخ، حين أسقط الشعب المسلح المنظم نظاماً عميلاً، وألحق بجيش أمريكا الغازي عاراً وهزيمة مازالت أجهزة الدعاية الريجانية - حتى هذه اللحظة - تبتكر الوسائل لمحو صورتها من أذهان الشعب الأمريكي، فتنتج أفلاماً لبطولة رجال مخابراتها في «إنقاذ» الشعب الفيتنامي حيث «رامبو» يقوم بالمهمات المستحيلة.. و.. ويجيش الجيوش لغزو دول صغيرة، لا تكف بدورها عن تعليمها الدرس تلو الآخر.

كانت السيدة بن وجهاً باسلاً للتنبؤ الجميل. وقلت لنفسي - بعد الحديث السياسي - لابد أن أكتب عنها كتابة أخرى، ومضى الزمن ولم أكتب. وحين جاء النضال الباسل للنساء الفيتناميات في صفوف قوات جيش الشعب الفيتنامي بامرأة نائبا للقائد العام تذكرتها مرة أخرى.. ولم أكتب. وحين حكت لي سيدة فيتنامية عشية سقوط سايجون - وكانت قد خرجت من سجن دام خمسة عشر عاماً ذاقت فيه على أيدي الجلادين الأمريكيين كل ألوان العذاب - كيف أنها تدير في مدينة «هوشي منه» - سايجون سابقاً - مركزاً لاعادة تأهيل الآف من بنات الليل خلفهم المعتدون حطاماً وقرر الحكم الاشتراكي إلحاقهن بالمجتمع كقوة منتجة تستعيد احترامها لنفسها وثقتها بالحياة عن طريق العمل في مجتمع جديد، الثروة فيه لكل الناس.. قلت لنفسي آن الأوان أن أكتب عن السيدة «بن» ثم ضاعت أوراقي عنها لأسباب خارجة عن إرادتي.

واليوم جاءت «تلك المرأة الوردة» «بنازير بوتو» رئيسة حزب الشعب الباكستاني والتي تقبع الآن خلف جدران زنزانة منفردة بالسجن المركزي في «إسلام آباد» ومعها خمسة الاف معتقل ومعتقلة تحيط بها قلوب ومظاهرات الآف مؤلفة من أبناء وبنات الشعب الباكستاني، تهتف «تسقط الصهيونية» «تسقط أمريكا» كما تتطلع إليها عيون ملايين النساء في كل أرجاء الأرض.

تهبني «بنازير بوتو» مادة حية تثير فخري القديم المتجدد بنساء آسيا المكافحات وبنات جنسي، تدفعني إلى الأمام وكلي أمل أن تكون صلابتها الملهمة وشجاعتها الحكيمة زاداً للنساء العربيات في رحلتهن الطويلة لاجتياز مستنقع الردة الذي سقطن فيه مرتين، مرة بانتصار الثورة المضادة، ومرة أخرى لحسابهن حيث أفرزت هذه الثورة المضادة وبأموال البترول أفكارها. خرجت بنازير من معطف أبيها «ذو الفقار على بوتو» وهو واحد من قادة الاستقلال والتمرد والعدالة في بلدان العالم الثالث، قاد طريق الوطنية الطويل إلى اكتشاف الحقيقة التي سبق لكل من عبد الناصر وسيكوتوري وبن بللا ونهرو ونكروما وكاسترو أن اكتشفوها عن طريق التجربة الحية: وهي ضرورة الخروج من قبضة السوق الرأسمالي العالمي والاحتكارات الكبرى والتقدم حثيثاً نحو الاشتراكية.

كما اكتشف بوتو - بالتجربة أيضاً - أن الاستسلام لشروط صندوق النقد الدولي والبنك الدولي يقود بلدان العالم الثالث إلى مزيد من الخراب والتأخر، وكان واحداً من أشد دعاة النظام الاقتصادي العالمي الجديد حماسة ودأبا. ويحكي «بوتو» في مذكرات كتبها في أيامه الأخيرة في السجن - هُرِّبت ونُشرت في لندن - كيف أن هنرى كيسنجر وجه له في آخر لقاء تهديداً واضحاً مباشراً: «لو لم تقبل شروطنا سوف نمثل بك، نعم سوف نمثل بك»

وكان كيسنجر مندوباً صريحاً لمجموعة احتكارات أمريكية وقد كان أن شكل «ضياء الحق» الذي قاد الانقلاب العسكري ضد بوتو محكمة هزلية قضت بإعدام رئيس الوزراء فعلاً رغم التدخلات العالمية الهائلة والاحتجاجات الشعبية المتباينة. وهزال المحكمة نفسه، التي أخذ رئيسها - الذي اغتيل فيما بعد - يصرخ قبل بدايتها أن المتهم مدان لا محالة.. وكتبت «نصرت بوتو» - زوجته - رسالة للمحكمة تقول فيها: «صدقني يا سيدي إن ما تقوله واضح الزيف، وما كان لكلماتك هذه أن تملأني بالحزن لولا معرفتي أنك في هذه اللحظة بالذات سوف تمسك بالقلم الذي تكتب به الحكم في قضية زوجي».

وكان نظام ضياء الحق قد أستأجر جماعة من «المعترفين» الذين جرى تعذيبهم في قلعة لاهور المخيفة «فأقروا» بارتكاب جريمة قتل أحد المعارضين «لبوتو» أثناء حكمه، لكن واحداً بعد الآخر أخذ يسحب أقواله التي أدلي بها تحت التعذيب، وكادت الوساطة

أن تنجح في الافراج عن بوتو، الذي حكم باكستان رئيساً وسجيناً. لكن اندلاع الثورة الايرانية والدور البارز الذي لعبه آية الله الخميني من منفاه في قيادتها أفزع ضياء الحق الذي كان يعرف جيداً مدى الشعبية الكاسحة و«الكاريزمية» التي يتمتع بها بوتو. وكان حكم الاعدام والتنفيذ. يقول «بوتو» في مذكراته:

«أعرف الآن على نحو جلي أنني ضحية مؤامرة دولية كبرى لأنني رفضت المساومة على المصالح الأساسية للوطن. نعم إنني ضحية مؤامرة دولية. فليست لعبة أطفال تلك التي يوضع بمقتضاها رئيس بلد ورئيس وزرائها في السجن بتهمة ارتكاب أعمال غير قانونية تخل بأمن باكستان». ثم يوجه الحديث إلى ضياء الحق قائلاً: «سوف ينقضي زمن سجني، وسوف ينقضي زمن رئاستك، ولكن حكم التاريخ محتوم ولا مهرب منه».

وكأنما كان ذو الفقار على بوتو يتنبأ في أيام سجنه الأخيرة وقبل إعدامه بحالة الذعر التي سقط فيها الجنرال بعد أن تخلص من أحد ألد خصوم النفوذ الأمريكي في آسيا بسبعة أعوام وكان خلال هذه الأعوام قد حكم البلاد بالطوارئ وعطل الدستور وأمر بتعذيب المعتقلين في السجون وأعطى لنفسه صلاحية حل الأحزاب ومصادرة أموالها «لأن النظام الإسلامي الذي أقوده ليس في حاجة إلى أحزاب».

في قلب هذا العالم العاصف الذي لا يكاد يعرف استقراراً تربت بنازير. بنازير الصبية تنمو في رحاب واحد من أكبر أحزاب آسيا - «حزب الشعب الباكستاني» الذي أسسه أبوها عام ١٩٦٧. تنضج آنسة ذكية تطوف مع أبيها الذي انحدر من أسرة اقطاعية لكنه انحاز للشعب، تطوف في أرجاء البلاد الشاسعة الفقيرة تدرك أن النهوض بالوطن خرافة مالم يتغير هذا الواقع المزري. تتعلم من أبيها الخطابة ومن أمها ذلك الحنان التلقائي الذي تغدقه على أبناء الشعب في جولاتها المتعددة واشرافها الصبور على عدد هائل من الخدمات المجانية. قدمت للشعب في ظل حكم الحزب الذي يتقدم الصفوف الآن دفاعاً عن الديمقراطية.

تتعلم بنازير أن عمل المرأة السياسي يمكن أن يتجدد ويتأصل بدفق عاطفتها ومشاعرها الفياضة، وأن العقل البارد يظل ابداً في حاجة ماسة إلى وهج القلب حتى تشق الحكمة الشجاعة طريقاً إلى جماهير العمال والفلاحين والطلاب وفقراء المدن نساء ورجالا. وعرفت الفتاة في الواقع كيف يتعلق الناس بصورة حقيقية بالزعماء الذين ينتمون إليهم ويدافعون عنهم. حين ساق ضياء الحق أمها «نصرت بوتو» إلى محكمة عسكرية في محاولة لادانتها لأنها لم تلبس «الشادور» - الحجاب - في بلد يطبق الشريعة الإسلامية!! وكسدت تجارته الرخيصة. لأن رأياً عاماً ساند الزوجة التي كانت محاكمة زوجها تجرى على قدم وساق لإعدامه.

تلقت بنازير تعليمها في جامعتين من أكبر جامعات العالم «اكسفورد»

و«هارفارد» التي تخرج فيها عدد من الساسة الأمريكيين البارزين، وتعلمت الحذر من مأساة شقيقها الذي مات مسموماً في المنفي، ومن تاريخ حزبها روح الفريق - وإن اتهمها الخصوم بالفردية - ومن المحافل الدولية ذكاء المناورة التي أخذت توظفها جميعاً لدي عودتها لخدمة أهداف الشعب والوطن وليس ابتغاء لكسب شخصي تافه، منصباً كان أو ثروة.

وقبل أن تعود من المنفى بعد رفع الأحكام العرفية في باكستان تحت ضغط النهوض الشعبي العارم، قامت «برحلة أمريكية» عقدت اجتماعات واسعة مع أعضاء مجلس النواب والشيوخ تعرض قضية وطنها، وبرحلة أخرى إلى الاتحاد السوفيتي أعلنت فيها أنها مع الحل السلمي عبر المفاوضات «للقضية الافغانية». وقبل المنفى والعودة، كانت «بنازير» تخرج من سجن لمظاهرة لاقامة جبرية لاجتماع حزبي دون كلل. تخطب، وتنظم، وتحشد، وتخطط، ونصب عينيها خريطة واضحة للوضع العام في وطنها، في شبه القارة الهندية وفي العالم. وتعتمد الآن سياسة المجابهة مع الجنرال رغم أنها تكاد تسير على صراط مستقيم خوفاً من اندلاع العنف وإجهاض الانتفاضة الشعبية.

تحرص بنازير على عدم المساس بالجيش، بالرغم من أنه المعقل الحصين للجنرال، إذ تجد نفسها وحزبها وحركة استعادة الديموقراطية التي تتزعمها، والعنفوان الشعبي المتنامي الذي فجرته عودتها، وقدراتها التنظيمية - تجد نفسها أمام مأزق حقيقي، فهناك مصالح اقتصادية هائلة ربطت بها الشركات العالمية كبار ومتوسطي الضباط في كل جيوش بلدان العالم الثالث التي سقطت في قبضة التبعية وباكستان على رأسها فأصبحوا مدافعين بحكم مصالحهم عن بقاء الدكتاتورية، بالاضافة إلى أن السياسة الأمريكية اتبعت نهجاً ثابتاً في تدريب هذه الجيوش حين سلحتها بكفاءة عسكرية عالية شرط عدم تسييس هذه الكفاءة لتصبح جيوشاً من المرتزقة لا يعنيها في شيء مصير الوطن أو تدهور حال الفقراء فيه أو الاستقلال من عدمه. وتظل مثل هذه الجيوش مصدراً هاماً لتمويل الانقلابات العسكرية بجنرالات معدومي الضمير فاقدي الولاء للوطن تستخدمهم الاحتكارات الدولية ساعة الحاجة على طريقة شيلي وباكستان واندونيسيا وما اصطلح على تسميته بالظاهرة الأمريكية اللاتينية التي افتضح دور المخابرات المركزية في التخطيط لها وتمويلها، وتجهيز ترسانة دعايتها المضادة للوطنية والاشتراكية والشيوعية.

واجهت «كورازون أكينو» وضعاً مشابهاً في الفلبين ولكن أنقذها في خاتمة المطاف انحياز فريق من الجيش للمطالب الشعبية التي عبرت عنها.

وتحرص «بنازير» على سلمية الاحتجاج والتظاهر رغم عنف البوليس وذعر ضياء الحق الذي أشاعت المخابرات المركزية قبل شهور أنه «استنفد أغراضه وآن له أن يرحل».

ولا تريد «بنازير» أن تقدم للجيش ذريعة لقيام جنرال آخر على طريق ضياء الحق بانقلاب عسكري.

والآن تقف حركة استعادة الديمقراطية التي تضم في صفوفها أحد عشر حزباً مؤتلفاً عند النقطة القصوى للمواجهة، وفي المقدمة بنازير بوتو التي نجحت بعد جهد جهيد في إعادة تنظيم صفوف الحزب الذي عادت فوجدته سيئ التنظيم وقد نالت منه الضربات المتواصلة وشاعت في صفوفه الانقسامات بين الشيوخ والشباب، بين اليمين واليسار. ولكن الحفاظ على وحدة الحزب ولو بتضحيات هنا وهناك هدف يستحق الجهاد ويحتاج إلى الحصافة والمقدرة، لأن بناء حزب عصري أصلاً في بلد متخلف هو في حد ذاته انجاز كبير يشهد تاريخ باكستان لبنازير بوتو بفضل كبير فيه، وسوف لا يكون لهذه الشهادة شأن كبير سوى أن تستقر الأوضاع وتنتصر الديمقراطية. ذلك أن قيادة امرأة وطنية تقدمية لحزب كبير، ولشعب تمزقه الصراعات الطائفية والقبلية، ويشتد فيه الانقسام الطبقي ليست شيئاً عادياً ولا بسيطاً، لأن المرأة أقدر من الزعماء الرجال على إطلاق الامكانيات الغافية لملايين النساء اللاتي غالباً ما تنهكهن التعاسة واللامبالاة وانخفاض الوعي، وتدهور الكفاءة. تبث المرأة القائدة ثقة فيهن فتجذبهن إلى الحزب والعمل العام والأمل، وتقدم للوطن طاقة عمل مضاعفة للنمو والازدهار والسعادة.

ما إن تولت أنديرا غاندي في الستينات قيادة حزب المؤتمر الهندي حتي اندفعت إلى عضويته مئات الآلاف من النساء تعلقاً بالمرأة – القائدة.

ويعبر صحفي أمريكي عن دهشته لهذه المقدرة الفائقة لبنازير بوتو فهي زعيمة حقاً «في بلد تمشي فيه النساء في ظل الرجال، وتحكمه حكومة طاغية لكنها تقية!!».. ولكن الصحفي الأمريكي يفوته أن شعب الباكستان قد توصل عبر خبرة مريرة إلى حقيقة أكثر مرارة وهي أن هذه التقوى المدعاة لم تكن الا ستاراً لأبشع أنواع الطغيان وأدني أشكال التبعية، وأن تلك المرأة الوردة السافرة الوجه هي أكثر تقوى بكثير من الطاغية الذي هرع ليحج إلى بيت الله لدى اندلاع الانتفاضة أملاً أن يواصل نظامه الحياة في وجه شعب بأكمله.

وددت أن أحيي في شخص «تلك المرأة الوردة» حضور نساء آسيا الصاخب على خارطة العصر، «بنازير» وردة ندية في باقة تضم أنديرا غاندي.. سيريمافو باندرانيكا.. حسينة مجيب الرحمن.. كورازون اكينو.. ومن سيأتين من بعد ومن يكافحن الآن فعلاً من أجل عالم أجمل حتى من ذلك الذي تنشده الآن بنازير ذو الفقار على بوتو.

آخر المستنقع

حين دخل المملوك جابر ليقف بين يدي الوزير أخذ يبالغ في الانحناء، ويزيد في مظاهر الاحترام حتى تكشف النفاق واضحاً، وأخذ يعرض عليه التدبير. كان المملوك

جابر - كما عرفه زبائن المقهي في مسرحية سعد الله ونوس «مغامرة رأس المملوك جابر» - ولداً ذكياً لامع الذكاء، نهازاً للفرص من طراز فريد. والزمان الذي تحكي عنه المسرحية زمان انهيار وهوان مثل هذا الزمان الردئ الذي نعيشه. أخذ الولد جابر يبحث عن الإلهام الذي يصل به إلى علو المقام ورضى السلطان، فيقبض بدل أن يدفع، لمح الفرصة تواتيه، فانقض عليها بلا تراخ. يؤمن أن الفرصة قد لا تواتي مرتين، وسر الفطنة ألا تحتاج الفرصة مرتين، وإن اسعفه الخيال صارت الأماني سهلة المنال. فماذا يعنيه مما يجرى في بغداد مادام هو الرابح في الختام؟ صحيح أن عامة بغداد ينحدر حالهم من سيئ إلى أسوأ فالأسوأ، ولكن ماذا يعنيه من عامة بغداد؟ يعرف اتجاه الريح فيطير معه حتى لو كان لا يحمل سوى العفن فماذا يهم؟ وحتى لو دفع به هذا الريح العفن إلى المستنقع، فماذا لو أنه كسب من هذا المستنقع بالذات رضى السلطان، أو حتى وزير السلطان.

كان وزير السلطان في زمن المملوك جابر معذوراً في حيلة ذكية، يريد أن يبعث برسالة إلى حاكم الاعداء وقد أحكم الخليفة الحراسة على أبواب بغداد حتى أن الهواء نفسه لا يستطيع أن يمر دون رقابة. فقدم المملوك الذكي نهاز الفرص رأسه وشعاره الأبدي:

- لكل عملة وجهان، والمهم أن تميل في الوقت المناسب إلى الوجه الكاسب. فناد الحلاق أيها الوزير، ليحلق شعري وعندما يصبح جلد الرأس ناعماً كخد جارية جميلةَ يكتب سيدنا الوزير رسالته عليه، ثم ننتظر حتى ينمو الشعر ويطول فأخرج من بغداد في سلام.

ويزهو الولد الانتهازي بمهمته، ويصل بالرسالة إلى ملك الفرس الذي يرسل بجيوشه لبغداد في ليل ليدكها. ويجد نفسه وجهاً لوجه أمام السياف المكلف بجز رقبته تنفيذاً لما تبقي من رسالة وزير بغداد إلى ملك الاعداء.. إن الوزير لا يريد للسر أن يشيع بحال. لكن جابر لا يصدق فيقول للسياف:

- أنا الذي دبرت للخروج بالرسالة من المدينة رغم شدة الحراسة على أبوابها. كم كان سروره عظيماً، لو ترى عناقه لي عندما أردت الرحيل، لقد عانقني، تصور والله الوزير نفسه عانقني كما أعانقك الآن.

لكن السياف يتقدم ليربط جابر بالسلاسل ثم يقطع رأسه. ويكون أمر مغامرته قد انتهى على عكس ما خطط له على خط مستقيم. كان أحد زبائن المقهى قد علق على مشهد مثوله الذليل أمام الوزير قائلاً: ما هو إلا ولد نهاز للفرص.

فيرد الآخر: نهاز للفرص.. ليكن.. هذا هو الطريق للوصول إلى أعلى المراتب.

فيعلق آخر: وأحيانا إلى أسفل المراتب. إذا كنت لا تعرف.

وأسفل المراتب هذا هو آخر المستنقع الذي أخشى أن يصل إليه في زماننا هذا

كاتب من طراز فريد، يتيه فخراً بمهارته في التعرف على الوجه الكاسب، وبحاسة الشم اليقظة لديه يتعرف على اتجاه الريح. ويقفز متزلفاً إلى ظهر الحصان الرابح، ولا يدرك - للأسف - أنه من فوق هذا الحصان بالذات سوف يقع ذات مرة - على طريقة ولد أذكى منه - لتنكسر رقبته.

راهن هذا الكاتب مؤخراً وببرود قلب مثير على وهن الذاكرة العامة، كما راهن على الإرهاق العام الذي حل بالناس نتيجة السياسات التابعة المعادية لهم. والتي تستنزف قواهم وتضعف روحهم فأخذ «يعاير» الشيوعيين لأنهم تعاملوا مع مصريين يعتنقون الديانة اليهودية، ولأن بعض المفكرين اليهود «المصريين» لعبوا دوراً في قيادة بعض المنظمات الماركسية بعد الحرب العالمية الثانية.. تصور أن الناس المرهقين قد نسوا أن الشيوعيين المصريين كانوا ومازالوا في مقدمة صفوف الوطنيين الذين رفضوا اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المصرية - الإسرائيلية، وقاوموا التطبيع وفضحوا أسس التبعية والطفيلية والفساد ووقفوا بصلابة ضدها جميعاً، يقدمون البدائل ويعبئون الجماهير العاملة للنضال من أجلها، ويدفعون مع التجمع والناصريين ثمناً لم يدفعه غيرهم من أجل القضية الوطنية والقومية والتصدي للعدو الإسرائيلي الامبريالي. وساحات المحاكم والمعتقلات والسجون شاهد لا يمكن تكذيبه.

ثم «يندلق» متزلفاً أمام أعتاب الحزب الحاكم الذي يواصل طريق كامب ديفيد ويفتح للصهيونية الأبواب ويحيل الوطن إلى محمية أمريكية ويواصل إرهاق الجماهير. وهو لا ينسى في حالة الاندلاق هذه، وبينما الحكم منغمس في حلاقة رأسه، أن يسعي لتسجيل نقطة اضافية لصالحه فينهل من عداء الحكم للشيوعية الذي يضع هذه النقطة في سجل حسناته، بوهم أنه إنما يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى. ولأن للطريق الذى سلكه ضلعاً ثالثاً يكتمل به مثلث الأعداء في نظر دعاته، فلعل صاحبنا لن يفاجئنا حين يضيف «النصرانية» غداً إلى قائمة الأعداء التي ضمت «اليهودية» والشيوعية في قاموسه ليصل أخيراً إلى منتهى المنتهى.. إلى حيث وصل «جابر» برأسه المخلوع متوهماً أنه لعب على الوجه الكاسب.

ويتوهم صاحبنا أنه يعلم القراء الشطارة، وحقيقة الأمر أنهم من شطارته المدعاة تلك يكتشفون ما هي الانتهازية بالضبط.

---

٣ سبتمبر ١٩٨٦



حرية بين ليلى ورضوى

حرية بين ليلى ورضوى

عرفتهما لسنوات طويلة قبل أن اقرأ كتابي رحلتيهما إلي أمريكا للدراسة. أخذت «ليلى» تتحدث عن ضرورة الاعتناء بالفرد في المسرح وأن تحظى مشكلاته الداخلية باهتمام خاص.. كنا نشارك في ندوة بالجامعة عن المسرح السياسي، فريق من الطلاب والمسرحيين الشبان، هواة ومحترفون، والجامعة تتأجج بالمسيرات ومجلات الحائط ومظاهرات الاحتجاج.. ومنتديات الفكر الاشتراكي التقدمي والفكري الناصري. ولم يكن الهوس الديني قد ظهر، دعوة لمواصلة حرب الاستنزاف التي توقفت دون سبب معلن مع اسرائيل.. قال السادات حينئذ.. كنت ابتغي شن الحرب لكن الضباب أوقفني..

كانت «ليلى أبو سيف» قادمة لتوها من أمريكا حاملة معها شهادة الدكتوراه في مسرح نجيب الريحاني.. وأستاذة في معهد الفنون المسرحية. عرفت فيما بعد كيف ان كل أفكارها مسبقة ومعدة سلفا.. حين قرأت كتابها.

بعد أيام.. عرفت «رضوى».. في قلب الأحداث ذاتها.. في لجنة الكتاب والأدباء والفنانين التي عقدت أول اجتماعاتها في نقابة الصحفيين لمساندة الطلاب المعتصمين في جامعة القاهرة..

كانت بارعة في صياغة النداءات والبيانات والبرقيات.. للغتها ايقاع خاص يرفض أن يتوقف عند حدود اللحظة الراهنة.. نطلب منها: اكتبي يا رضوى ماذا يمكننا أن نقول هنا.. هاتي كلماتك كحد السيف.. وتألقت «رضوى عاشور» قطرة متميزة في بحر الاحتجاج الصاخب ضد اعتقال الطلاب الذين خرجوا من مبنى الجامعة في منتصف ليلة قارسة البرودة..

واختفت رضوى.. ذهبت إلى أمريكا لتحصل على شهادة الدكتوراه عن أدب السود هناك ثم تعود كاتبة وأستاذة في الجامعة.

بعد سنوات كتبت كل من ليلى ورضوى شهادتها.. فكل امرأة حبلى بروايتها عن الحياة.. وقليلات يلدن.. وكل امرأة تبحث واعية أو بدون وعي عن الاعتراف بانسانيتها.. وانتزعت ليلى ورضوى هذا الاعتراف عبر جهاد طويل ضد الخوف والأفكار القديمة ورعب الأسرة التقليدية التي لا تنشد للبنت سوى الستر.. خرجتا معا من «النفي في تاء التأنيث». كتبت رضوى بالعربية «الرحلة» وكتبت ليلى أبو سيف «جسر عبر الزمن» بالانجليزية. نحن أمام امرأتين ذكيتين مفعمتين بالحياة يدفعهما الطموح دفعا لعدم الرضا.. عرفتا رغد العيش كل بطريقة مختلفة. تنتمي «ليلى» لأسرة قبطية غنية «لأمها» نزح أبوها الفقير من الصعيد وتعلم ليصبح من أكبر أطباء الأشعة في مصر.. وتنتمي رضوى لأسرة مسلمة ميسورة.. الأب محام كبير والأم حفيدة لرفاعة الطهطاوي..

«كرفاعة كنت في طريقي إلى بلاد بعيدة عنا غاية الابتعاد «لتحصيل المعارف»، ولكني لم أكن مثله ذاهبة بحياد من لا يعرف شيئا مما هو مقبل عليه.. ولا كنت مثل أجيال لحقته من مبعوثين راحوا وعادوا مولهين في عشق الأنوار «الامبريالية». على عكس «ليلى» التي ذهبت وقد بهرتها الأنوار الامبريالية.. فأمريكا.. هي المثل الأعلى وقد عشقتها «ليلى».

«وهل يمكن أن تكون الحياة البورجوزية مضجرة في ذاتها» يتساءل بريخت.. ويجيب هي مضجرة لأننا نختار شيئا آخر. قفزت ليلى حواجز شائكة كثيرة طالما وضعت في طريق المرأة في كل مكان، بعضها ينتمي لقرون مشت كما هو الحال في بلادنا والآخر يأتي من تحيزات الرجال في عالم يتحيز ضد المرأة، أخطاؤها الصغيرة فيه فضائح، ونزوات الرجال فروسية.. اجتهدت ليلى لتحقق حرية بهذا المعنى.. سعت للطلاق من رجل لم تحبه أبدا، ورفضت باصرار أن تنجب منه.. وفيما بعد أحبت بحرية رجلا أمريكيا.. «كانت تقع في الحب للمرة الأولى»، لكن ليلى لم تدرك أن حاجزا آخر يقف بين انسانيتها وبين حقيقة العالم «المثالي» الذي اختارته وبهرها لحد الهجرة اليه.. والانغماس فيه لشوشتها.. وحتى استجدائه أن يعترف بها أو يقر لها بنديتها له كفرد.. وان تمنحها المؤسسة الأمريكية المتعالية على الشعوب صكا فهي لا ترحب الا بالافراد المنتزعين من عالمهم «كعجبة» وموضوعا للفرجة..

تقبل ليلى هذه الوضعية راضية وممتنة، فهي لم تكن تطرح الأسئلة ولم تتفجر في داخلها روح النقد التي قلبت «رضوى» ضد عالمها المريح. كانت على العكس قد احتفظت في الذاكرة والقلب بالإجابات الجاهزة.. أمريكا سيدة العالم.. فأصبحت مؤرقة فحسب بذاتها بصرف النظر عن الوطن المستباح.. بل ليس في النشاط الأمريكي والمتعدد الجنسيات في وطنها ما يشين فلا هذا استغلال ولا أمريكا امبريالية.. يصبح بؤس الوطن قدرا.. وقذارة الأطفال وتكدس الشوارع وتدهور حال المرأة مسائل خاصة بكل فرد.. فلم لا؟ ألم تنجح هي المرأة في اجتياز العقبات. والأسئلة عند رضوى قائمة

ابدا... والإجابات ليست مسبقة ولا هي جاهزة.. لأن سؤالا جوهريا من أسئلتها الكبرى يتوجه إلى هذه «الهنا» الجديدة عليها.. إلى أمريكا هنا.. بينما تظل ليلى تجتهد لتبقى «هنا»، ليلى تكدس المعارف للبريق والافتخار والتميز.. للتملك والتفوق.. بينما تجد رضوى في المعارف وتكوين الخبرة اداة لتغيير الواقع لا للامتياز الاجتماعي.

يعيش الانسان عمرا واحدا فأي فرح من الأفراح النادرة في هذا العالم يمكن ان تهبه نفسك لو أنك تختار.. في هذا الاختيار يقدم كل منا تعريفه الخاص للحرية. تهب ليلى نفسها لفرح الامتياز السائد وترى نفسها حرة...

تهب رضوى نفسها لفرح قادم.. لكنها تتحقق في صنعه.. تصبح حرة في أمريكا كما في مصر، تتوحد رضوى مع المستضعفين من كل صنف ضد الظالمين من كل صنف، تستوقفها كلمات فريدريك دوجلاس الزعيم الأسود قبل قرن من الزمان، حين صاح في الأمريكيين:

«إن حريتكم التي تفخرون بها تحلل منحط»

ذلك ان أي شعب يستعبد شعبا اخر ليس حراً بحال.. وكم من الشعوب استعبدتها أمريكا.. وما تزال.. وإن أي طبقة تستعبد طبقة أخرى ليست حرة بحال.. وكم يستعبد المالكون الكادحين.. ومايزالون.. فاذا ما تمتلك السائد القائم على الاستغلال عقلك وقلبك ستتخيل انك حر.. تماما مثل ليلى.. لكنك لست حرا..

والزمن عند ليلى هو عدة أزمنة.. البؤس وفقدان الحرية في وطنها.. والرخاء والحرية في «الوطن» الجديد الآخر.. «ها أنا الحق به لأضرب جذوري هناك قبل فوات الأوان» حيث تتحقق حريتها الكاملة حين تتحقق ذاتها. والزمن عند رضوى هو أيضا عدة أزمنة، زمن الامبريالية وزمن النضال ضدها، وفي النضال ضدها تتحقق رضوى هنا وهناك.. فهنا وهناك يستمر القتال.. هنا وهناك الطلاب والعمال الملونون والسود والاستغلال واحد حتى لو تغيرت بشرة القائمين عليه وسدنته.. تركت القاهرة تغلي.. افتتح عمال حلوان العام الجديد بمظاهرات صاخبة في ميدان التحرير... و... و .

لا ذهبت «رضوى» محايدة ولا ذهبت «ليلى».. ليلى ترى في الزمن الامبريالي خلودا ما... مثلا أعلى يتجدد ويتحقق إلى الأبد على خير نحو في مركزه الرئيسي.. في أمريكا. بينما تراه رضوى إلى أفول مهما طال الزمن.. وتكرهه كما ينبغي فكيف للملدوغ ان يتحدث بهدوء معملي عن خواص العقربة.

تتحقق المرأتان في الحب أولا.. لا تخفيه احداهما ولا ترهبه.. فقد تمردتا منذ زمن بعيد على المعنى الجنسي لتاء التأنيث.. رفضتا صورة المرأة - العبدة.. المرأة - الأدنى.. المرأة - التابعة، ودخلتا في الحب السوي حيث يرتفع مقام الانثى في عيني الانثى أولا دون خطيئة أو عورة أو نقصان، ورغم أنف الأفكار القديمة التي ترى المرأة

عورة ورغم أنف «فرويد» الذي عرف المرأة بالسلب كذكر أخصته الطبيعة تظل عمرها تنشد الاكتمال دون أن تحصل عليه أبدا.. فهي في نظره محكومة بالنقصان حتى نهاية الخليقة... لكن لا ليلى ولا رضوى يحكمهما النقصان ولا الشعور بالدونية ولا ترهبهما تاء التأنيث فتقتحمان الحياة.

تقول رضوى في وصف انتظارها لمريد - زوجها -

«كحلت عيني.. ثم رحت أصفف شعري الذي طال على غير المألوف حتى كاد يصل كتفي.. ثم نظرة أخيرة في المرآة ففاجأني إلى حد الدهشة جمال المرأة أمامي، ما الذي يحدث لهذه المرأة الصغيرة حين تستعد للقاء حبيبها؟ أي شيء ذلك الذي يطرأ عليها فتتألق هكذا كنجمة أو قصيدة؟ هل هو الفرح يليق برضوى حين يسكنها كما رائحة الليلك تسري ساعة الغسق عبر النوافذ المشروعة أم انها الانثى يليق بها الصحو؟»

وكانت «ليلى» «المحظوظة لأنها خرجت من تجربة الزواج التعيس حية لم تمت» قد عرفت الحب واكتشفت كم أن التعاسة قد ظللت روحها وامكانياتها، وكم يكمن في أعماقها من أشواق، وكم أن مطلبها للحب هو انجاز انساني بديع.. لكنها في كل مرة أحبت كان قلبها يتجه رأسا إلى أمريكي أولا ثم دبلوماسي أجنبي في مصر ثانيا.. كان قلبها يتجه مباشرة إلى حيث المثل الأعلى، وربما لأنها تنتمي للأقلية القبطية حيث لا يقف الدين عائقا في طريق الزواج من أجنبي.

تخلق «ليلى» حالة من العطف العام على هؤلاء الذين طالت الحراسة ثرواتهم.. وتكتب إن مصادرة هذه الثروات كعمل مناف للحرية.. عدوان عليها.. وحين يختلط الأطفال في قرية «أم عبده» جدتها بالطين والمواشي والذباب والدجاج «مصر الحقيقية» كما تقول.. لا تثير هذه «المصر» سوى القرف مع شعور عابر بالذنب. إن قهرها اليومي لا يشكل عدوانا على حرية ما.. حريتها المنشودة تتحقق وتزدهر في عالم التملك والراحة والكرامة للقلة.. وكم أمطرت ليلى ليبرالية السادات والانفتاح بالتقريظ.

لما حكت لها «ثريا» كيف أن أهل زوجها الذي قتل في حادثة يريدون أن يستحوذوا على ممتلكاتها القليلة بحجة أن المرأة تعجز عن إدارة عمل.. كان تعليق ليلى.. إنها القصة القديمة.. يستغل الرجال الأقوياء ضعف النساء الفقيرات.. ولكن ألم يخطر في بالها ابدا أنهم يستغلون أيضا ضعف الرجال الضعفاء.. يستولون على أراضيهم وينهبونهم ويذلونهم. إنه نفس المنطق ونفس العين التي رات أمريكا شيئا واحدا.. كما رات الحرية مجرد اختيار ذاتي. مهما يكن الواقع..

«عزيزة.. إنك لست بقرة.. لست بقرة انت تغضبين يؤجج السخط روحك.. وتلك بداية التغيير..».

وفي مثل العالم التعيس الذي يحاصره القهر من كل جانب.. بالفقر المدقع حينا

وبالتقاليد حينا آخر يصبح حديثها عن حرية مجردة للمرأة خارجا عن الإطار الاجتماعي مثيرا للسخرية ولكنه ينال إعجاب الأمريكيين البلهاء الذين يعشقون ما تقدمه لهم شعوب البلدان النامية من مظاهر «للفرجة» فهي شعوب «عجيبة».. تتزوج فيها النساء في صفقة ويقتطع الأهل جزءاً من انوثتهن في الختان اتقاء للفضيحة، والمرأة كائن جنسي في شعب همجي لا يستحق بسبب كل هذا سوى الاستعمار الذي يعمل على نقله إلى الحضارة.. ولأن «ليلى» - كما كان أبوها الذي رأى في الاستعماريين سنداً «لمصره» - لا تضع هذه الظاهرة أبدا موضع التساؤل فإنها على عكس «رضوى» التي خرجت من طبقتها لتجتاز دروبا صعبة. ظلت «ليلى» أسيرة طبقتها التى انتقل مثلها الأعلى من انجلترا إلى أمريكا.. ونظرت إلى بلدها كموضوع للفرجة... تماما كما ينظر اليها الأمبرياليون.. الذين أخذت تتكامل معهم ليصبح عالمهم هو العالم الجميل الذي توله به ليلى، وقد دخلت في المنافسة كما ينبغي - أصبحت أمريكية - لائقة، ولذا لم تكن الشهادة هي آخر المطاف بالنسبة لرضوى بل بدايته «ابتسمت لآلة التصوير ولفكرة أني اعدو خائفة من كلمات الأستاذ و«الحرملك». نجحت مرة أخرى في قفز حاجز وافلت».

رضوى تقتحم العالم الأمريكي كامرأة حرة ومختلفة تحمل هم وطنها ومستقبل الكادحين في العالم أجمع في قلبها وتتحصن ضد الاغراء الظاهري.. ضد أمريكا الزائفة «أروح انكمش وافرز من الحرص قشرة تحميني من ورثة المؤسسة» لا تكف رضوى عن التساؤل: ماذا أتى بي الى هنا؟.. تترك رضوى أمريكا بأسرع ما يكون وتهاجر إليها «ليلى» بعد ان استشعرت خطر الهوس الديني كما تقول..

«جرس الباب يدق. إنها السيارة التي ستحملني الى المطار لأذهب الى نيويورك. مازالت هناك دقائق أخرى لأنهي كلماتي هذه. أعرف انني لم أبلغ النهاية بعد.. لم أصل إلى اخر الممر الطويل.. فمازال هناك الكثير لأرحل من أجله. امتلكني رعب مفاجيء منذ أن خطرت هذه الفكرة لي... لكنني لست وحدي.. معي نساء كثيرات ومعهن سوف أحقق الحرية التي تخيّلتها، الحرية في ان أصبح انسانا، الحرية في أن أعمل.. الحرية في ان أختار... والآن تلوح لى الحرية من جديد كقوس قزح ساحر..»

ومن قبل كان هدفها.. في الطريق إلى أمريكا، أن نحرر أنفسنا كنساء من كل المظالم والإهانات التي لحقت بنا ونحن مجبرات على تحملها».

الإهانات والمظالم تدفع «بليلى» إلى نفسها من أجل حرية خاصة تنبع من الملكية الخاصة ويترتب عليها كرامة خاصة.. شرف خاص.. مهما تكن الصورة العامة.. حرية وجودية، وتدفع «برضوى» التي تعرف جيدا أن استعباد المرأة واستغلالها هو جزء من استعباد واستغلال أشمل - تدفع بها إلى حرية اجتماعية توظف من أجلها كل فضائل الثقافة والاجتهاد والتحدي والخلق..

هي في أمريكا. حرة نعم.. ولكن ليس في حفلات السفارات ولاقاعات البحث الاكاديمي الباردة فحسب.. ولكنها حرة بصورة أعمق.. في الشوارع حيث حياة السود والملونين والفقراء. «في احتفال بذكرى استشهاد سلفادور الليندي مع طلبة العالم الثالث.. وكانت عيون المخابرات الأمريكية قد أحاطت بالمكان، أهتف مع الحاضرين لحكومة الوحدة الشعبية وللشعب الذي لن يهزم مادام متحداً.

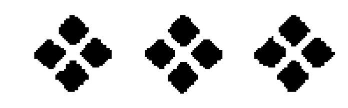
وتعود رضوى إلى مصر ليغادرها مريد بعد سنوات قليلة مطرودا كفلسطيني عشية زيارة السادات للقدس تعرف هي أن الأيام القادمة صعبة نعم الأيام القادمة صعبة.. لاهي تبقى ولا ترحل.. تبقى بحرية.

وبعد.. هل تراني ظلمت «ليلى» لصالح «رضوى»؟ أعود فأقرأ ما كتبت فأجدني - على العكس - أنصفت ليلى التي تقف بالنسبة لي في الماضي التام. حيث ظنت بعض النساء أن حريتهن ستتحقق في الصراع ضد الرجل ولم أكن قد ذكرت شيئا عن فيلمها الرديء فنيا وفكريا.. «أين حريتي».. وحين تذكرته عرفت لماذا كانت هذه الحرية بالذات أنانية شخصية وزائفة.. كما أن لدي سبباً ثالثاً هو أن كتاب ليلى مليئ بالأكاذيب.

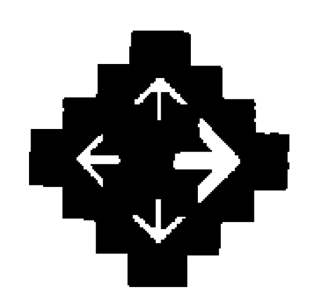
أما حرية رضوى فهي حريتان.. واحدة لامرأة وأخرى لمناضلة اشتراكية.. تقف رضوى في المستقبل القريب الذي يبتعد أحيانا كأنه وهم.. وفي خضم الصراع نمسك به جميعا ونعشقه.. ونجعله قريبا.

---

١٢ فبراير ١٩٨٦



المحتويات



إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز

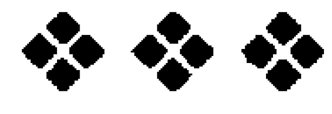
روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل (الكتاب الأول) / إبراهيم أصلان
وردية ليل (الكتاب الثاني) / إبراهيم أصلان★
حجارة بوبيللو / إدوار الخراط
زمردة ايوب / بدر الديب★



قصص

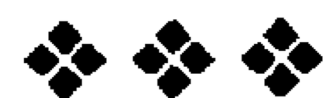
السرائر/ منتصر القفاش
الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي / إدوار الخراط
القمر في اكتمال / نبيل نعوم
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي
رجفة اثوابهم البيض / يوسف المحيميد
شرفات قريبة / هناء عطية



★ قيد النشر

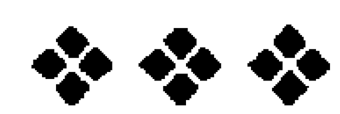
شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم داوود
فقه اللذة / حلمي سالم
لا نيل إلا النيل / حسن طلب



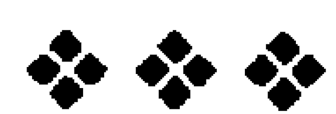
عيون الأدب الأجنبي

عهدة الصفر / ألان نادو
مدام بوفاري / جوستاف فلوبير
المكان / أني إرنو
الكلمات / چان پول سارتر
الأحمر والأسود / ستندال
ديرپارما / ستندال ★
الضفة الأخرى / چوليان جراك ★
چاز / توني موريسون ★
الأسير العاشق / چان چينيه ★
قتل للذكرى / ديديه ديننكس★
الآثار الشعرية الكاملة / إديت سودرجران
أعمال رامبو الكاملة / أرتور رامبو ★



دراسات

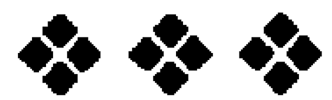
مسرح الشعب / د. علي الراعي
من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر
البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث / د. سيد البحراوي
الكتابة عبر النوعية / إدوار الخراط
يوميات الحب والغضب / فريدة النقاش



★ قيد النشر

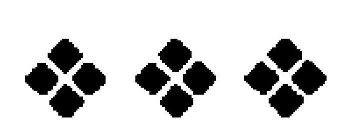
دراسات ثقافية أجنبية

مدخل إلى الأدب العجائبي / تزفيتن تودوروف
مجتمع الفرجة / جي ديبور ★
كبش الفداء / رينيه جيرار ★
الوضع ما بعد الحداثي / چان - فرانسوا ليوتار ★
مدخل إلى الشعر الشفاهي / پول زمتور ★



فنون

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)
لغة السينما / علي ابو شادي ★



★ قيد النشر

يوميّات الحبّ والغضب

في قلب هذا العالم الخرب ، يمكن أن نحلم .

والسؤال : متى ستمطر مطراً حقيقياً ؟ يمكن أن يتحول إلى عمل وغناء بشري .

عين يقظة وقلب حر يمران على الدنيا ، المرة الحلوة : من أمريكا اللاتينية إلى اليمن السعيد ، من لاهوت التحرير إلى بهوت .

صفحات من كون يموج : يختلط فيلليني بإضراب سائقي القطارات ، ويمتزج الخبز المحرّم بالجزائر ، ويدخل سجن النساء في شعر سيد حجاب ، ويترابط انهيار الاتحاد السوفييتي باعتقالات سبتمبر ، وفي آخر اللقطة يصحو الشهداء .

سفر من الدموع والابتسام ، تطوف عليه كلمات شوقي : « ودمع لايكفكف يادمشق » .

سنسمع أنشودة المطر ، وفي قلب هذا العالم الخرب : ثمة حُلم .



دار شرقيات